بيير جيرو

علم الدلالة

ترجمه عن الفرنسية

الدكتور منذر عيّاشي

محاضر في علم اللّسانيات

في الجامعات السورية

JABI 88

بيير جيرو

علم الدلالة

طلاس

للدراسات والترجمة والنشر

مكتبة أحمد تيمور

دمشق ــ أوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١

تلكس : ٤١٢٠٥٠

ص.ب : ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

علم الدلالة

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
١٩٨٨

بيير جيرو

علم الدلالة

ترجمه عن الفرنسية
الدكتور منذر عيّاشي
مُحاضِر في علم اللّسانيات
في الجامعات السورية

قدّمَ لَهُ
الدكتور مازن الوعر
أستاذ اللّسانيات في جامعة دمشق

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

عنوان الكتاب باللغة الفرنسية

LA SÉMANTIQUE

par

Pierre GUIRAUD
Professeur à l'Université de Nice

تقديم

بقلم الدكتور مازن الوعر

استاذ اللسانيات في جامعة دمشق

لماذا ندرس الدلاليات (علم الدلالة)، ثم لماذا نترجمها إلى لغتنا العربية؟ الدلاليات ــ كدراسة للمعنى ــ هي مركز دراسة العملية الايصالية. وبما أن العملية الايصالية أصبحت عاملاً مهماً وحاسماً في التنظيمات الاجتماعية، فإن الحاجة لفهمها تصبح أكثر إلحاحاً. والدلاليات أيضاً هي مركز دراسة العقل الإنساني (الفكر، الإدراك، المفهوم، الصورة... الخ). إن كل هذه الوجوه العقلية مرتبطة بشكل منظم ومعقد بالطريقة التي من خلالها نصنف ونضمن في الوقت نفسه تجربتنا للعالم في اللغة التي نستخدمها.

فإذا كان ذلك كذلك ــ ومــــن خلال هاتين الطريقتين ــ فإن الدلاليات أصبحت ملتقى لكل تفكير، بل ملتقى لحقول دراسية عديدة. فالفلسفة، وعلم النفس، واللسانيات وغيرها من العلوم لها علاقة مهمة وعميقة بهذا الموضوع. ولكن اهتمامات هذه العلوم بالدلاليات تبقى متشعبة ومختلفة وذلك لاختلاف المنطلقات النظرية. فعلم النفس مثلاً يهدف إلى فهم العقل، واللسانيات تهدف إلى فهم اللغة واللغات، والفلسفة تهدف إلى فهم كيفية معرفتنا لما نعرف، وتهدف بالتالي إلى فهم قواعد التفكير الصحيح وتقويم الحقيقة والكذب من خلالها. والواقع تبدو الدلاليات محيرة. وذلك لأن هناك العديد من المناهج لدراستها والوصول إليها، ويزيد الأمر حيرة أن الطرق التي من خلالها تكون هذه المناهج مرتبطة ببعضها بعضاً إنما هي غير واضحة حتى للكتاب الذين يكتبون في هذا الموضوع إلا نادراً.

ولكن المشكلة الدلالية الأساسية تأتي من حقيقة أن الدلاليات هي «إدراك يدور حول نفسه». إنها نشاط يشبه نشاط «الكلب الذي يطارد ذنبه».

إن هذه الأسباب وغيرها جعلت من الدلاليات حقلاً

مهماً ساهم الكثير من الكتاب في البحث فيه وتقديم الكثير من الكتب التي تدور حوله.

والواقع هناك عدد من الكتب التي تحمل نفس العنوان الذي يحمله هذا الكتاب (علم الدلالـة = La sémantique)، ولكن هذا لا يعني بأن كل كتاب جديد يبحث في هذا الموضوع ويجازف فيه هو تضييع للوقت، أو نسخة مماثلة للجهود المتقدمة، إن كل كتاب جديد يتناول الدلاليات، هو محاولة جديدة وفريدة للكاتب من أجل أن يسلط ضوءاً جديداً على الموضوع الذي هو كشف دائب في ظلام مستمر.

إن كثرة البحوث الدلالية هذه سببت في اختلاف المناهج وتشعبها بحيث يمكن للمرء أن يقرأ كتابين حول «علم الدلالة» ولكنه نادراً ما يجد شيئاً مشتركاً بينهما. فليس هناك باحث يستطيع أن يلم بكل شيء يتعلق بحقل الدلاليات، وإذا فعل ذلك فإنه على الأقل سيأتي بخلاصة سطحية حول ما توصل إليه الآخرون حول المعنى.

انطلاقاً من هذه الروح العلمية ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية. فالكتاب هذا يرى الدلاليات فرعاً من علم اللسانيات الذي هو الدراسة العلمية للغة وللغات البشرية.

وهكذا فإن الدلاليات ستكون في نفس النسق التحليلي للنحويات (علم التركيب = Syntax) والصوتيات (علم الصوت = Phonetics).

فإذا كانت الصوتيات والنحويات تدرسان البنى التعبيرية وإمكانية حدوثها في اللغة، فإن الدلاليات تدرس المعاني التي يمكن أن يعبر عنها من خلال هذه البنى الصوتية والتركيبية.

والواقع أن النظر إلى الدلاليات على أنها فرع من اللسانيات إنما هو نقطة تحول مثيرة ومثمرة في تاريخ البحث الدلالي. فمنذ ثلاثين سنة خلت ـــ وعلى الرغم من أن اللسانيات قد تطورت في اتجاهات مختلفة وحصلت على ما تريد ـــ إلا أنها ربطت الدلاليات بالفلاسفة والأنثروبولوجيين (علماء الأجناس). ولكن على أية حال فإن النظرة في العشرين سنة الفائتة تحولت من اعتبار الدلاليات على أنها حقل محير وكبير وغير مبني على مبادىء واضحة وسليمة إلى اعتبارها جوهر البحث اللساني وأساسه. والواقع، إن تركيز البحث الفكري في الدلاليات قد وصل إلى ذروته، وقد قاد هذا التركيز والتكثيف إلى إضاءات واكتشافات جديدة

تقارب ــــ إن لم تكن أعظم ــــ تلك الإضاءات والإكتشافات التي أتى بها الفلاسفة اللغويين أمثال Wittgenstein و Carnap في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن .

إن اللسانيات ــــ كدراسة علمية للغة وللغات البشرية ــــ جلبت لموضوع الدلاليات درجة معينة من المنهجية التحليلية العلمية ، تنظر إلى دراسة المعنى على أنه مكون من مكونات النظرية اللسانية العامة حول كيفية عمل اللغة ووظيفتها . فإذا أردنا « مضمون » اللغة دون الرجوع إلى « شكلها » فإن هذا لن يكون أقل من دراستنا لـ « شكل » اللغة دون الرجوع إلى « مضمونها » . وقد حاول اللسانيون تطبيق معيار واحد في بعض الأحايين ، إلا أنهم لم يقدموا نتائج مثمرة ذلك أنه ليس هناك بنية نحوية ــــ تركيبية دون وجود بنية دلالية . ويبقى المثالان المعروفان اللذان أتى بهما عالم اللسانيات الأمريكي نوم تشومسكي وعالم النحو العربي سيبويه خير دليل على تلاحم البنيتين التركيبية والدلالية :

1. (الأحلام الخضراء العديمة اللون تنام بعنف) .

Colorless green ideas sleep furiously.

2. شرب زيد ماء البحر .

نستنتج من ذلك أن استخدام معياري الشكل والمضمون سيعمق معرفتنا بالبنية الدلالية للدماغ البشري ولا سيما إذا استخدمنا التقنيات التحليلية لعلم اللسانيات في البحث الدلالي.

والحقيقة، بالرغم من صعوبة الخوض في حقل الدلاليات، فإن فهمه ونقله إلى اللغة العربية يعد جهداً كبيراً وطيباً لا شك سيسهم في إرساء ركن جديد من أركان اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة. ولولا ثقافة المترجم الدكتور منذر عياشي العربية التأثيلية التي ورثها عن دار العلوم بمصر ثم ثقافته اللسانية الحديثة التي تعلمها في جامعة إكس بروفانس في فرنسا، لما حقق هذا العمل غايته في الحيز العربي. ولكن الأهم من هذه وتلك هو استفادة القارىء العربي من هذا الكتاب. ذلك هو الأمل الذي يسوغ الجهد الكبير لعمل دام طويلاً.

والله وليُّ التوفيق

دمشق 15تموز 1987

مازن الوعر

المقدمة

1. علوم الدلالة الثلاثة

إن علم الدلالة دراسة لمعنى الكلمات. ولكن بعض الملاحظات والنظريات، وبعض وجهات النظر الحديثة، عادت مجدداً تطرح هذه القضية القديمة. ولا يزال علم الدلالة يعاني لأن موضوعه لم يحدد تماماً، ومصطلحاته لم توضح بدقة، مثله في ذلك كمثل باقي العلوم، القديم منها جداً أو الحديث جداً. ولهذا السبب يجد المختص نفسه كالرجل العادي تائهاً أمام الاستعمالات التي يصادفها كل يوم لهذا المصطلح.

أعلنت جريدة New York times في مقال يمتد على ثلاثة أعمدة أن «الدلالة سلاح بيد الحمر يستعملونه في الحرب ضد

حرية الاختيار » ، وقالت أيضاً إنه إذا « كانت الفلسفة تكوّن الدلالة كما تكوّن نحو اللغة العلمية » ، فكيف يمكن أن نعتبر صراخ الطفل الرضيع انعكاساً دلالياً ؟ . « ثم ما هي الدلالة في موسيقى الجاز (Jazz) أو في المصارعة ، أو في الإعلانات ؟ » .

إن الكلمة تدل بالأصل على فرع خاص من فروع الدرس اللغوي وقد استعارها منه المنطقيون ، وعلماء النفس . وهي تنتسب بدءاً من الآن إلى ثلاثة علوم متميزة .

إن كلمة دلالة (Sémantique) قد اشتقت من الكلمة اليونانية « Sêmaino » (دل ــ عنى) . وهي نفسها مشتقة من « Sema » (دال) . وقد كانت في الأصل صفة تدل على كلمة « معنى » : إن أي تغير دلالي هو تغير معنوي ، وإن القيمة الدلالية للكلمة تكمن في معناها . ونحن ننطلق من الكلمة لنطبق القيمة على أي إشارة . ولذا نتكلم عن الوظيفة الدلالية للألوان في لافتة ما ، أو في البوارج البحرية ، كما نتكلم أيضاً عن القيمة الدلالية للحركة ، والصرخة ، أو عن أي إشارة نستخدمها في نقل رسالة ما أو حين نتواصل مع الآخرين . وعلى هذا فإن كل ما يتعلق بمعنى إشارة الإيصال ، وبصورة خاصة بمعنى الكلمات يعتبر من الدلالة .

هناك ثلاثة أنظمة رئيسة للقضايا الدلالية :

آ . قضية تتعلق بعلم النفس:

لماذا وكيف نتواصل؟ ما هي الإشارة، وماذا يجري في ذهننا وفي ذهن من نخاطبه حين نتواصل؟ ما هو الجوهر وما هي الوظيفة الآلية والنفسية لهذه العملية؟ إلى آخره.

ب . قضية تتعلق بالمنطق:

ما هي علاقات الإشارة مع الواقع؟ ضمن أي شروط تطبق الإشارة على موضوع أو على حالة من خصائص وظيفتها أن تعني؟ ثم ما هي القواعد التي تضمن اتصالاً حقيقياً، إلى آخره.

ج . قضية تتعلق باللسانيات:

ولنقل بالأحرى هي مجموعة من القضايا، والسبب أن لكل نظام من الإشارات قواعده الخاصة التي تتعلق بطبيعته ووظيفته.

إن الدلالة اللسانية هي الدلالة الوحيدة التي تشكل موضوع اهتمامنا. وفيه ندرس الكلمات ضمن سياق اللغة: ما هي الكلمة، وما هي العلاقات بين شكل الكلمة ومعناها، وما هي العلاقة أيضاً بين الكلمات، وكيف تضمن الكلمات سير وظائفها؟ إلى آخره...

تتكون الدلالة من العلوم الثلاثة المتميزة إذن: علم النفس،

وعلم المنطق، واللسانيات. وكل علم من العلوم يدرس قضية المعنى، ومعنى الإشارات لفائدته الخاصة أو لحسابه الخاص. وهذه العلوم، على كل حال، لم تضع المعنى دائماً تحت مصطلح الدلالة، وإن كثيراً من أولئك الذين يشتغلون في هذه العلوم، يشتغلون بالدلالة ولا يعرفون ذلك. وقد طالبت منذ وقت قريب، مدرسة مكونة من بعض المنطقيين بهذه الكلمة، كما طالبت بها مجموعة مكونة من علماء النفس. ولذا هناك، اعتباراً من الآن، إلى جانب علم الدلالة اللساني علم دلالة فلسفي يجمع بين الرمزي وبين علم الدلالة العام والذي يتكون من علم النفس الإجتماعي للإشارة.

تبقى هذه الإستعمالات الثلاثة للكلمة ذات تداخل شديد، مع العلم أنها تعبر عن وجوه ثلاثة لقضية واحدة. وإن ميادينهم وقضاياهم يقوم بعضها على بعض، وتختلط دون توقف.

2. الدلالة اللسانية

ينتشر الغموض داخل اللسانيات والسبب أن موضوع هذا العلم لا يزال سيىء التحديد. وبما أن للدلالة، منذ البداية، ينبوعها داخل تغيرات المعنى فإنها تتماثل إلى حد بعيد مع أسلوب البلاغة القديمة في تحليلها للصور. وإذا أخذنا ملاحظات

وأطروحات المنطق وعلم النفس بعين الاعتبار فسنجد أن ميدان علم الدلالة سيتسع ليغطي اتجاهات جديدة مثل: نظرية الإشارة اللسانية، والوظيفة النفسية الاجتماعية للكلام، والبنى اللفظية، إلى آخره. وستظل تتسع هكذا حتى تطمس مصطلحاً بات مهدداً في أصل وجوده.

لقد اصطلح القواعديون سابقاً، ومنذ بداية القرن التاسع عشر، على المصطلح « Sémasiologie » أو دراسة المعاني، أي على المصطلح المأخوذ من أصل يوناني « Séma » (معنى).

وجاء اللساني الفرنسي M.Bréal فبدل هذا المصطلح بكلمة أخرى، هي الدلالة. وكان يقصد أن يبرز ويميز علم المعاني و « القوانين الكامنة وراء تحول المعاني [1] » وكان يقول إن الدلالة دراسة جديدة جداً إلى درجة أنها لم تتلق اسماً لها بعد. وقد أكد أنها تنتسب في الواقع، بعد تجديدها وإغنائها، إلى Sémasiolgie (علم المعاني).

أما الآن، فقد امتزجت الكلمتان، وأصبح لهما استعمال

---

(1) M. Bréal, les lois intellectuelles du langage, Fragments de sémantique, in Annuaire de l'association pour l'encouragement des études grecques en France, XVII (1883).

واحد، وقد أبعدتا عن الاستعمال كل المصطلحات الجديدة مثل: Rhématologie, Rhématique, Glossologie, Sématologie, إلى آخـــره. ويمكن أن يقال إن هذه المصطلحات لم تعد تظهر إلا بشكل متفرق. أما الشيء الأكيد، فإن الدلالة ــ المصطلح معتمد هنا ــ أصبحت بديلاً للمصطلح Sémasiologie، أو على الأقل في فرنسا وفي البلاد التي تنطق بالإنكليزية حيث ضمـنت مؤلفـات Bréal انتشارها.

تطرح دراسة الكلمات حين يدقق في معانيها مجموعة من القضايا. وسأقوم بعرضي لها تحت هذا العنوان. غير أن بعضهم يرى هذا التحديد فضفاضا. كما يراه بعضهم الآخر ضيقاً. وإذا كان ذلك كذلك، فلن تصيبنا الدهشة إذن، إذا صادفنا في الصفحات القادمة بعض القضايا والنظريات التي لم يشر إليها أصحابها دائماً بالمصطلح (دلالي)، أو إذا وضعوهـا بوضوح خارج ميدان الدلالة كما جاء في تعريفهم لها.

يُعنى علم الدلالة بدراسة معنى الكلمات: إن الكلام عبارة عن وساطـة اتصال. فأنـا حين أنطـــق بكلمـــة «ولـــد»، «بوجوليه[2]»، فإني أنقل بهذه الكلمة إلى شخص ما رغبتي في حيازة شيء ما، ويفهم هذا الشخص ما أريد: الفكرة، أي صورة

(2) نسبة إلى اسم مدينة فرنسية تزرع العنب. وهي شهيرة بالخمر المسمى باسمها.

كأس من عصير العنب، موجودة في ذهني وقد انتقلت إلى ذهنه.

أمر معقد تشترك فيه الأشياء، والصورة الذهنية للأشياء، كما يشترك فيه تكوّن الأصوات واندراجها ضمن نظام معين. ثم يشترك السمع أيضاً، وتكون الصورة في ذهن السامع. وإن كل هذا يكون عدداً من القضايا التي تهم نظرية المعرفة، والمنطق، وعلم النفس، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم الصور السمعية (L'acoustique)، واللسانيات.

نستطيع في إطار اللسانيات أن نفكك سلسلة الكلام إلى ثلاثة عناصر: أصوات، كلمات، وبنى نحوية تحددها أشكالها ووظائفها في الوقت نفسه.

يدرس علم الدلالة، إذن، وظيفة الكلمات. وعلى عاتق هذه الوظيفة يقع نقل المعنى.

	شكل	وظيفة
أصوات		
كلمات		دلالات
بنى		

إننا سنعود إلى هذا الرسم لنشرحه ونعلق عليه. أما الآن فيمكننا أن نقول إن الدلالة، كما هي محددة في هذا الشكل، تنطوي على مشكلتين:

1. مشكلة المعنى: لماذا تشير الكلمة (Beaujolais) إلى كأس خمر في الفرنسية؟ ومتى حازت هذه الكلمة على هذاالمعنى؟ وماعلاقات هذه الكلمة مع الكلمات الأخرى؟ إلى آخره.

2. مشكلة المدلول: ما هي الكلمة؟ ما هي وظيفة هذه الكلمة؟ وكيف تأخذ الكلمة وظيفتها؟

أُخذ مصطلح المدلول هنا بمعناه الإيجابي، أي من اسم الفعل: (Signi- Fiction) وهذه قضية نفسية، بينما المصطلح (معنى ـــ Sens) يحتوي على قيمة سكونية (Statique)، وهي الصورة الذهنية التي تنتج عن القضية. وسنتجنب الخلط بين المصطلحين خلافاً لما تفعله اللغة العادية التي تستعمل المدلول أو معنى الكلمة بلا مبالاة[3].

يتعلق المدلول بعلم النفس، بينما يتعلق موضوع الدلالة اللسانية بدراسة معنى الكلمات. ولكن المعنى يتصل اتصالاً وثيقاً

---

(3) لم يثبت المصطلح بعد. بعض اللسانيين يستعمل المصطلحين معنى ومدلول في مقابل ماأسميه فيما سيأتي المعنى الأساسي، والمعنى السياقي.

بآلية تشكيل الدال (Signification). ويجب أن نلقي نظرة على مجموع قضايا المدلول التي يشكل الكلام جزءاً خاصاً منها، وذلك قبل أن ندخل في التحليل أو قبل أن نعطي تعريفاً ولو بسيطاً للمعنى والدلالة.

إن هذا العلم، بعد التعريف به، يغطي حقلاً واسعاً جداً، حتى إنه يتعدى حدوده ليلامس حدود المنطق، وعلم النفس، ونظرية المعرفة، وعلم الاجتماع، والتاريخ، إلى آخر ذلك من العلوم.

لقد كُتِبَ عن الدلالة في كل هذه الفروع لأنها تشكل موضوعاً هاماً. ولكن حدود هذا البحث تضطرني للتضحية بعدد من المسائل (البلاغة، والاشتقاق، والدلالة عند Bréal) من أجل الكلام عن بعض النواحي النادرة والحديثة. كما تضطرني أن أختصر عن طريق بعض الرسوم المبسطة بعض القضايا التي تعتبر لأهميتها وتلوُّن موضوعها وتعقيده، من جوهر ما نبحثه.

لن نجد في هذا البحث إلا مدخلاً لبعض المؤلفات الأكثر كما لا واكتمالاً. ونذكر من بينها: Meaning and change of meaning لكاتبه Stern. ويقدم هذا الكتاب لنا دون ريب، صفحات غنية جداً، وتصنيفاً منسقاً للغاية، وتشكيلاً متسعاً إلى أبعد حد رأيناه إلى يومنا هذا. وهناك كتب أخرى مثل: The principles of semantics لكاتبه Ullman. وقد تمم هذا الكتاب بكتاب آخر: Précis

de Sémantique Français ، حيث يمكن أن نعتبره موجزاً للفكر المنظم إلى أبعد حد ممكن في يومنا هذا، والأكثر حداثة.

نجد كل هذه الكتب مذكورة على الأغلب عبر الصفحات القادمة. وقد كان علينا أن نذكر كتباً أكثر لأننا نتبع آثارها، أو لأننا نسير على منهجها.

الفصـــل الأول

المعنـــى
قضيـة الدلالـة

1. إشـــارات ومـعـــان

إن المعنى قضية تجمع إليها موضوعاً، وكائناً، ومفهوماً، وحادثة مع إشارة قابلة لاستدعائها: الغيم إشارة تدل على المطر، وتقطيب الحواجب إشارة تدل على الحيرة وعـواء الكـــلاب إشارة تدل على الغضب، وكلمة (حصان) إشارة تدل على الحيوان.

الإشارة، إذن، عبارة عن مهيج، يسميه علماء النفس منشطاً. ويظهر أثره على الجهاز العضوي حين يثير صورة ذهنية لمنشط آخر. فالغيم يستدعي صورة المطر والكلمة تستدعي صورة الشيء.

إن ما نسميه تجربة أو معرفة ليس إلا معنى الواقع، حتى حين أن التكنولوجيا، والعلوم والفنون، والكلام، طرق خاصة. ويمكن أن نتصور من كل هذا، إذن، أهمية قضية المعنى المطروحة وعموميتها. وما دمنا

نعيش في وسط من الإشارات ، فلا غرابة أن يحتوي العلم العام للمعنى على مجموع الأنشطة والمعارف الإنسانية .

ولكنْ هناك أنواع من الإشارات التي تعنينا هنا بصورة خاصة . إنها الإشارات الاجتماعية : إذا كان الغيم إشارة تدل على المطر ، فلأن العلاقة بينهما طبيعية . وهذا ينطبق على الكلب أيضاً . فهو يستطيع أن ينبح عفوياً ، دون أن يخبرنا عن غضبه ، أو أن يخطرنا بهجومه . ومع ذلك ، فعندما يئن لكي نفتح له الباب ، فإنه يعبر لنا عن رغبته في الخروج . وهو يعلم أننا سنفهمه . وهنا تصبح الإشارة أداة اتصال . ولكن قبل أن ننظر إلى هذا الفارق الجوهري ، يجب أن نعرف طبيعة الإشارة المقصودة في عموميتها .

إن الإشارة منشط يشترك مع منشط آخر في استدعاء الصورة الذهنية . وإن المعنى قضية نفسية ، بمعنى أن كل شيء يمر داخل النفس .

إن طبيعة هذا الاشتراك تكون القضية الأساسية لنظرية الإشارات ولعلم النفس . وأن النظرية المسماة Behaviorisme أو نظرية علم النفس السلوكي ، وكذلك علم النفس التجريبي عموماً ، كل هذه النظريات قد عقدت مكاناً هاماً لقضية الإشارة ، ووضعتها في مركز ملاحظاتها وفرضياتها . ونذكر ، في هذا الخصوص ، التجربة

الكلاسيكية التي أجراها بافلوف على كلبه.

تفترض هذه التجربة أن يترك المنشط أثراً في الذاكرة. ويستطيع هذا الأثر أن يظهر ثانية إذا تلاقى مع أثر جديد مطابق أو مشترك مع الأول.

وهكذا، فإن رؤية الغيم تستدعي صورة غيم آخر شوهد من قبل، كما تستدعي، في الوقت نفسه، الصورة المشاركة لهذا الغيم، وخاصة صورة المطر. وكذلك الأمر بالنسبة لصوت الصحون، فإنه يستدعي صورة الطعام. ورؤية اللهيب تستدعي صورة الحروق. وسماع نباح الكلب يستدعي صورة الكلب. حتى إن كلمة «كلب»، أي الأصوات التي تشكل الكلمة، فإنها تستدعي، حين تصل إلى آذاننا، صورة الحيوان الدالة عليه. وسنرى فيما بعد الانتقادات الموجهة إلى هذه الرؤية القديمة إلى حد ما، والتي يواجهها علم النفس الحديث. ولقد تبنى سوسير هذه الرؤية على كل حال.

إن لهذا الاشتراك طبيعة مادية. غير أن الأشياء ليست هي المشتركة. إن الصور الذهنية للأشياء، والفكرة التي نكونها عنها هي المشتركة في ذهننا. وحسب رأي سوسير، فإن «الإشارة اللسانية لا توحد بين شيء واسم، ولكن بين مفهوم وصورة سمعية».

2. الإشـــارات والـرمــوز

إن كل إشارة عبارة عن منشط مشترك.

ولكنْ، هناك شكلان كبيران ودالان من أشكـال الإشارة: الإشارات الطبيعية، والإشارات الاصطناعية.

أمـا الإشارات الأولى، فتعتمـد على العلاقـات الموجـودة في الطبيعة، وبين الظواهر. ونضرب على هذا مثلاً: الاشتراك القائم بين (الغيم ـــ المطر). تشكل كل معارفنا، وتقاناتنا، وعلومنا، وعياً دقيقاً ومضبوطاً إلى حد ما بهذه العلاقات الطبيعية. والجدير بالذكر أنها لا تأخذ قيمة إشارية إلا حين نشرك بينها في أذهاننا.

أما الثانية، أي الإشارات الاصطناعية، فإنها إشارات من صنع إنساني أو حيواني. وهي تنقسم بدورها إلى مجموعتين: أما الأولى، فنستخدمها تمثيلاً للواقع: كالرسم، والخريطة، والتسجيل الفونوغرافي مثلاً. وأما الثانية، فنستخدمها في الاتصال مع الآخرين: كالكلام المنظم، وإشارة الأدب، وإشارة الأخطار . غير أن الحدود بين هاتين الوظيفتين ليست فاصلة، لأننا غالباً ما نستخدم إشارات تمثيل الواقع، كالرسم مثلاً، في الإيصال. ومع ذلك، فإن طبيعة المجموعتين هي

التي تقيم الفارق بينهما . فإشارات المجموعة الأولى ، إذن ، عبارة عن إنتاج طبيعي للواقع ، مثل الصور أو الإيقونات . وإشارات المجموعة الثانية عبارة عن إشارات اصطلاحية ، أو بمعنى أعم عبارة عن رموز . وإن لوحة تمثل صورة (Durand) تعتبر إيقوناً . والمنشط السمعي للفظ (Duran) (بدون حرف الدال في آخر الكلمة) لا يرتبط ، بداهة ، بأي علاقة طبيعية مع (Durand) . ونستنتج أن المقصود ليس هو السمع ، وأن الاشتراك ينتج فقط عن الاتفاق بين المصطلحين ، أي أن يشير اللفظ (Duran) إلى اللفظ (Durand) . وهنا يكمن الأمر .

تأخذ كل طرق التمثيل المباشر للواقع مكاناً بين الإشارات الإيقونوغرافية : التصوير والفونوغراف ، والتسجيلات المختلفة ، والفنون كذلك . فالرسم يعيد تشكيل خطوط الأشياء وألوانها ، وصناعة التماثيل تعطيها كتلتها وحجمها ، وتمثل الموسيقى في بعض الأحيان صورة تامة للأصوات ، كما تمثل غالباً علاقات الإرتفاعات ، والكميات ، والزمن ، تماماً كما توجد في الطبيعة . ولكن الفنون تحتوي دائماً ، وفي الوقت نفسه ، على قسط كبير إلى حد ما من الرمز والاصطلاح . وخير شاهد على هذا ، هو تطور الأصول الجمالية .

إن إشارات الإيصال البحتة إشارات اصطلاحية في جوهرها . ويصدر معناها دائماً عن الاتفاق بين أولئك الذين يستعملونها .

فالرسم الذي يمثل صورة طفلين خارجين من المدرسة بشكل طبيعي، يعتبر لوحة مرور بفضل الاصطلاح والتواضع. كما يعني أيضاً، وجود مدرسة، وأن الحذر ضروري في هذا المكان.

نرى هنا بروز تمييز جديد. فبعض الرموز تشير إلى خواص طبيعية للأشياء، كما هي الحال بالنسبة للوحات المرور. بينما نرى أن بعضها الآخر تواضعي بحت.

توجد رموز معللة أو إيقونية، كما توجد رموز قسرية أو بحتة. وتعتبر هذه الرموز تواضعية في الحالين. ولكن التواضع المشترك لا ينفي (ولا يثبت كذلك) وجود مشتركات طبيعية بين الإشارة وبين الشيء المعني.

إن قواعد الآداب، والأشياء المستحدثة، والشعائر، والأعراف الاجتماعية، رموز إيقونوغرافية أو جاهزة. فإذا أملنا الرأس هنا، فإن هذا يعني إشارة للاستسلام. وإذا تجشأنا هناك، فإن هذا يعني إشارة لحسن الهضم. وهذا يؤكد، إذن، وجود علاقة طبيعية بين الإشارة ومعناها. ولكن كل هذا لا يكفي، بل لا يعد ضرورياً كي يثير المعنى. والسبب أن المعنى يقوم على التواضع.

إن اللغات رموز تواضعية بحتة ولا وجود للمشترك الطبيعي فيها

أبداً، أو أنه لم يعد محسوساً. ولكن هنا أيضاً، نجد أن الحدود الفارقة غامضة بين الرموز البحتة للجبر أو الإيقونات المنقوشة، وبين النظم الإشارية. فالكلام الإنساني نفسه يحتوي على حظ وافر من العلل: إذا نظرنا إلى الأصوات الحاكية مثلاً، فسنرى أنها تتكون من إشارات إيقونوغرافية. والشعر كذلك، إنه فن لساني يستخدم الإمكانات الكامنة في البيان الطبيعي: كالتناسقات المقلدة أو المستدعية والإيقاعات. وهي، خلافاً للموسيقى، ذاتِ مقاطع منسوخة عن الحركة، وعن الزمن الداخلي لانفعالاتنا.

إن معظم النظم مختلطة، والقليل منها غير مشوب. ومع ذلك فإنها جميعاً لا تتعدى واحداً من أربعة:

1. الإشارات الطبيعية المعروفة والمصنفة طبقاً لتقاناتنا، وعلومنا، ومعارفنا.

2. الإشارات التمثيلية أو الصور التي تنتج السمات الطبيعية للأشياء. وتنتمي الفنون إلى هذا النوع.

3. إشارات الإيصال أو الرموز المشتركة مع الأشياء التي تعبر عنها. والمثال الذي يعطى عن هذا النوع، هو الكلام الإنساني، بالرغم من أن الكلام مختلط جداً مع المشتركات الطبيعية في بعض أشكاله.

4. إشارات الإيصال الإيقونية الرمزية : كالشعائر ، والقوانين الإجتماعية ، والأشياء المستحدثة .

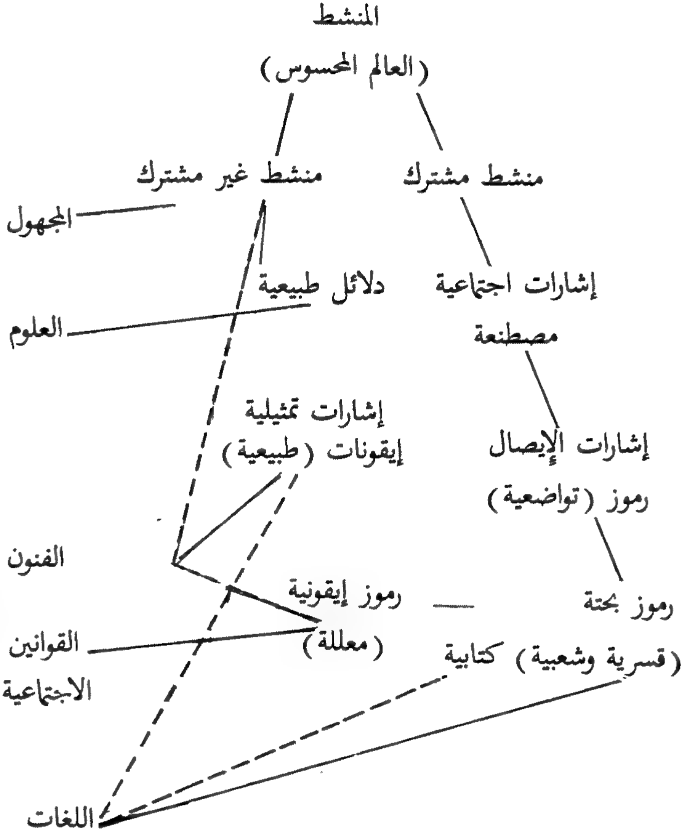

الإشـــارات

فيما يخص الإشارات الاجتماعية، نجد أن التعارض بين الصور والرمز يؤدي إلى تمثيل طبيعي، وتمثيل تواضعـي (صورة منقـوشة، وتركيب جبري). ونرى بين التمثيلين صوراً طبيعيـة ورمـوزاً مصورة (خريطة، وكلمة يحاكي صوتها صوت شيء آخر Onomatopée).

تنتمي اللغة الإنسانية، موضوع دراستنا الوحيد، إلى فئة الرموز البحتة، مع أنها تحتوي على كثير من العناصر التمثيلية الطبيعية.

هنـاك، بالإضافـة إلى هذا، تعـارض بين الإشارات التقنيـة والإشارات الجماليـة. إلا أن الوظيفـة الأولى للتمثيـل في الإشارات الجمالية قد أهملت. والسبب أن الإشارة مزودة بسمات ثانوية تسمح لها أن تمثل على كل حال. وهكذا، فإن صورة البطاقة الشخصية تتعارض مع الصورة الفنية، كما يتعارض فن الرسم مع التقانة البسيطة للإنتاج الحرفي، أو كما تتعارض الإسطوانة مع التأويل، إلى آخره. وإن الأدب ــ وخاصة الشعر ــ فن لغوي. ولكن دراسة هذه الفنون تعتبر موضوعاً للدرس الأسلوبي ولا تهمنا إلا عرضاً.

3 . المدلـول اللســاني : معنــى ومفهــوم

لقد ترك لنا فرديناند دي سوسير في كتابه (دروس اللسانيات العامة) رسماً بيانياً للإيصال الإنساني . وهو بالطبع ، يحتاج إلى تطوير وتصحيح في بعض المسائل . ولكنه ، مع ذلك ، يوجد في أصل كل النظريات والدراسات الدلالية الحديثة .

يستلزم الإيصال وجود متكلم ، وسامع ، وشيئاً يريد المتكلم أن يوصله للسامع . كما يستلزم وجود إشارات لسانية يوصل بها ما يريد إيصاله .

إن رؤية الشجرة أو ذكرها يثيران في ذهن المتكلم صورة مرئية أو مفهوماً (شجرة 1) . ويثير المفهوم باستخدامه المشترك صورة سمعية لكلمة (شجرة) . وكذلك الأصوات (« شجرة ») ، محمولة عبر الهواء على شكل موجات صوتية ، فإنها تقرع في أذن السامع وتثير في ذهنه الصورة السمعية (شجرة) ، الشيء الذي يستدعي الصورة المفهومية (شجرة 2) .

هناك ، إذن ، مشترك نفسي مكون من قطبين ، ويقوم على مصطلحين : الشكل الدال ، والمفهوم المدلول . وهو يحتاج إلى جملتين :

استدعاء الكلمة عن طريق الشيء، واستدعاء الشيء عن طريق الكلمة. وتتم سيرورة هذه القضية بالتبادل.

يحدث الإيصال الفعلي إذا التقت الصورتان (شجرة 1) و (شجرة 2).

ويعتمد هذا الرسم البياني على نظام من العلاقات المعقدة جداً:

1. علاقات بين المفهوم والشيء. إذ كيف يمكن أن تتشكل الصورة المفهومية في الذهن؟ وما هي علاقاتها مع الشيء؟ إنها قضايا تهم علم النفس، والعلم أو (المعرفة بالشيء)، وكذلك نظرية المعرفة (أي نقد هذه المعرفة).

2. علاقات بين المفهوم والصورة السمعية للإشارة. وهذه قضية المدلول. وهي تخص علم النفس، والمنطق، واللسانيات (علم الدلالة) في الوقت نفسه.

3. علاقة بين الصورة السمعية للإشارة وشكلها الصوتي المحقق. إن قضية الأصوات تهم علم وظائف الأعضاء، والفونيتيك.

4. انتقال الإشارة واستقبالها. وهي تهم علم السمعيات، ونظرية الإخبار، وعلم وظائف الأعضاء الخاص بالسمع.

5 . 6 . 7 . تركيب الصورة السمعية والمفهوم في ذهن السامع . وكذلك علاقة المفهوم المتلقى بالموضوع .

إن ما نسميه كلمة في كلامنا العادي يعتبر شكلاً صوتياً أو (منقوشاً) . واستدعاؤها للشيء إنما يكون بفضل التواضع . وهي تحتوي في الواقع على أربعة عناصر متميزة :

شجرة —	شجرة	=	شجرة	— شجرة
الشيء	صورة	=	صورة	الاسم أو الشكل الصوتي
	الشيء		الشكل الصوتي	
	المدلول		الدال	

الكلمة كما يراها سوسير

إن الشيء المسمى (شجرة) والشكل الصوتي (شجرة) جوهران واقعيان . وهما لا ينتميان إلى النظام اللغوي المكون من « مجموع الانطباعات العقلية » . فالشجرة تعتبر من ميدان علم النبات ، والزراعة ، وعلم الجمال ، إلى آخره . وأما الكلمة (شجرة) فتعتبر من

ميدان علم وظائف الأعضاء، والسمع، والفونتيك. وذلك لأن «الإشارة اللسانية لا توحد بين اسم وشيء، ولكنها توحد بين مفهوم وصورة سمعية».

إن مجموع القضايا (من 1 إلى 7) إذن، وحسبما يرى سوسير، وكذلك قضايا الصوت والسمع (3 ـــ 4 ـــ 5)، هي قضايا فوق لسانية. ودراسة العلاقات بين الدال (شجرة) والمدلول (شجرة) هي الشيء الوحيد الذي يهم اللساني.

هذا النوع من الدرس هو درس نفسي في الوقت نفسه، ومنطقي، ولساني بالمعنى الدقيق: إنه نفسي لأن الدال والمدلول صورتان عقليتان مشتركتان. وهو منطقي، لأن من وظيفة الدال أن يتحرى هوية المفهوم، وأن يستدعيه، ثم ينقله بعد ذلك دون تشويه له أو خلط. وأخيراً، هو لساني لأن الإشارات المكونة لنظام الرموز ذات طبيعة خاصة وهي اللغة.

إن الرسم البياني بشكله هذا، لم يكن دائماً محل قبول. وقد عاب الكثيرون عليه إبعاده الشيء المدلول.

ولقد وجدنا أن من الأطروحات البديلة له، والأكثر أهمية، مثلث Richards، و Ogden. وقد استخدم في عدد من الدراسات الحديثة، نذكر منها دراسة Stern بصورة خاصة.

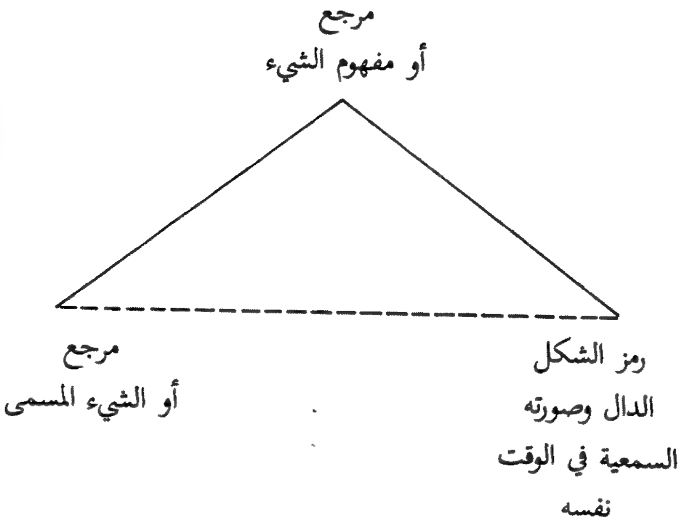

يتضمن المثلث، كما نراه، المرجع أو الشيء المسمى. ولكننا نلاحظ أيضاً (الخط المقطع في القاعدة) وجود علاقة مباشرة بين المرجع والرمز. وهذا يعني، في الواقع أننا نعود إلى العلاقة القطبية التي وضعها سوسير من قبل.

لا يوجد تناقض بين الرسمين البيانيين. غير أن الأول يؤكد الخواص النفسية لكل الظاهرة اللسانية، بينما يؤكد الثاني استقلال الكلمة واستقلال الشيء: الكلمة ليست هي الشيء. وهذه وجهة نظر

نفسية ومنطقية، إزاءها يذهب سوسير مذهباً يدعم فيه استقلال اللسانيات.

ومن العدل أن نقول إن سوسير لم يكن أبداً مبدعاً لعلم الدلالة، وإن كتابه يشهد على ذلك. وكما يبدو، فقد وسع أسس تحليله وذهب به إلى معالجة قضايا علمية.

إن تعريف الإشارة كما ورد عند سوسير قد أصبح موضع نقد عند علم النفس الحديث على كل حال. وإن النقد بدأ أول ما بدأ بمفهوم الماهية، والصور العقلية، والأثر المخزون في الذاكرة. وصارت هذه الأمور طبياً ونفسياً من المعطيات المباشرة لتجربتنا، على الرغم من أن هذه العلوم لم تصل إلى وصف يرضي ولا إلى تحقيق يخضع للمعايير التي لدينا. وإذا كانت هذه الأمور تلزم اللساني أن يتأنى كثيراً في استعمال هذه المصطلحات، أي بإبعادها عن القيم المعرفية Epistémologique فإنه يبدو ممكناً متابعة الكلام عن المفهوم والاحتفاظ به عملياً. ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أننا لا نعرف جيداً الطبيعة الدقيقة للمفهوم. وإذا كنا نستطيع الكلام عن الصورة العقلية فيجب أن نعرف أننا لا نملك دار خيالة صغيرة في أذهاننا.

لقد ظهر نقد آخر للرسم البياني الذي صممه سوسير، وانصب هذه المرة على المستويات المختلفة لتقدم الدال. ومن المعلوم أن

سوسير كان يراه عبر منظور نفسي يعد اليوم قديماً . هذا المنظور يميز بين الإحساس، والإدراك، ومخزون الذاكرة، إلى آخره. ونرى هنا أيضاً، أن اللساني يحتاج إلى علم وظائف الأعضاء النفسي، وإن كان لا يزال، في الحالة الراهنة لهذا العلم، سجين المصطلحات التقليدية.

4 . المعنى والعلاقة

لقد رفض علم النفس تعريف المضمون العقلي للإشارة. كما رفضت اللسانيات الحديثة ـــ البنيوية ـــ مفهوم المعنى نفسه، أي المعنى المصمم كصورة ملصقة بالدال الذي يحمله.

لا تتمتع الكلمات بمعنى، ولكنها تتمتع بوظائف، ولقد عالجت هذه القضية في كتابي (القواعد) (الفصل الثالث)، وفي كتابي (النحو) (الفصل الأول). إن المعنى، كما يظهر لنا أثناء الخطاب، يتعلق بعلاقات الكلمة مع كلمات المقام (Contexte) الأخرى. وتحدد هذه العلاقات بنية النظام اللساني. ويمكن القول إن مجموع هذه العلاقات هو الذي يحدد معنى أو معاني كل كلمة، ولا تحددها الصورة التي تحملها الكلمات. وهكذا يجد المصطلح (معنى) استقامة، لأنه يعني (اتجاهاً)، أي تحولاً نحو إشارات أخرى.

نتجت هذه النظرة من مفهوم سوسير للقيمة، ومن علاقة

الإشارة مع الأشكال الأخرى للغة. ونضرب مثلاً بسيطاً: إن قيم كلمة (أحمر) واستعمالاتها تتعلق بوجود أو بعدم وجود مصطلحات لغوية مثل: برتقالي، زهري، أرجواني. وإذا لم تكن هذه موجودة، فإن الكلمات: الدم، اليوسفي، القمر، تعتبر كلها حمراء. إن حالة اللغة هي التي تحدد قيم الكلمة. وهذه القيم ليست إلا مجموع إمكانات العلاقة التي تحدد حقل الاستعمال في الخطاب.

إذا تابعنا تحليل سوسير فسنرى أن كثيراً من اللسانيين المحدثين يعتبرون النظام اللغوي نظاماً بحتاً من القيم، وأن الكلمات ليس لها معنى، أو أن هذا المعنى على أية حال، لا يحدد في (صورة)، كما لا يحدد في مضمون ذهني تحمله الإشارة، وذلك ما يريده سوسير نفسه.

إني لا أرى بأساً من التكرار، فأقول مجدداً إني أعتقد ـــ مع سوسير ـــ بضرورة وجود مفهومين للقيمة البنيوية والمضمون الدلالي. ولا تنفي هاتان القيمتان بعضها بعضاً، بل تتكاملان. فالكلمة، من جهة أولى منفتحة على إمكانات من العلاقة تُعدها بنية النظام اللساني، ولكن، من جهة أخرى، كلما تحققت العلاقات الإفتراضية ضمن الخطاب وعرفها المتكلمون، نجد أن أثر المعنى الناتج عنها يتخزن في الذاكرة. وانطلاقاً من هذه اللحظة يتعلق المعنى بالإشارة ويعطيها مضموناً.

5. القسـر والعلـة

تعتبر الإشارة قسرية إذا لم تقم بين الدال والمدلول أي علاقة أخرى غير علاقة التواضع البحت للمتكلمين. وإذا كان الأمر غير ذلك فتعتبر الإشارة علة.

إن من إحدى بدهيات اللسانيات الحديثة أن تعتبر اللغة نظاماً من الرموز القسرية والخالية من العلل. وكذلك، أن لا يوجد أي رباط طبيعي بين الاسم والشيء المسمى. وإن كلمة «حصان» حين تشير إلى حيوان، فإن هذا يحدث بفضل العلاقة التواضعية البحتة.

لقد أثارت قضية قسرية الإشارة اللسانية، منذ سوسير، كثيراً من الجدل. ويبدو أن سوسير كان يتجه في أقواله إلى النظرية السائدة في ذلك الحين. وهي نظرية تعنى بأصل الكلمات من غير أن تنفي العلة عن النواحي الأخرى.

لدينا في الواقع ثلاثة مفاهيم: القسر، والعلـة، والتـواضع. يتعارض القسر مع العلة، ويشترك مع التواضع على اعتبار أن هذا الأخير يؤسس وحده المعنى في حالة غياب العلة. ولكن التواضع لا ينفي العلة.

يكمن جوهر الإشارة اللسانية في التواضع وليس في القسر. وإذا كان التواضع يميل إلى إزالة العلة عن الإشارة فإن هذا يعني أنه يتجه نحو القسر. ولكنه لا يعني أنه اتجاه لنفي العلة إطلاقاً. وعلى ذلك، فإن العلة في مثل هذه الحالة تكون صورة ثانوية، أي ليس لها ضرورة مباشرة. وهي إذ تفعل هذا، تتعطل، وتُظْلِمُ، وتختفي. ومن هنا فإن ملاحظة الظواهر اللسانية تسمح بملاحظة ظاهرتين لا جدال فيهما: إن قسطاً كبيراً من الكلمات يستعمل بسبب العلة التي نعيها إلى حد ما، والتي تحدد، بحسب الحالات، وظائف الكلمات وتطورها. ثانياً، إن خلق تعبير جديد يقوم بالضرورة على العلة. كما أن كل كلمة تعتمد عليها في أصلها وتحتفظ بها زمناً طويلاً نسبياً بحسب الحالات. ثم تنتهي إلى السقوط في القسر بعد ذلك. وهنا تتوارى العلة وتصبح غير مرئية.

هنا يكمن الفرق الكبير بين مدونات المصطلحات الرمزية والكلام. ففي مدونة ما، يعطى المصطلح الجديد مع تعريفه (اللغات العلمية كالجبر والفيزياء تعتبر كمدونات). ونرى، على العكس من ذلك، أن التواضع في لغة الإيصال لا يظهر أبداً. فمعنى المصطلح الجديد يتداخل مع المقام. وهذا ما يسمح للمتكلم أن يعرفه ويؤوله. وكلما أصبحت الكلمة الجديدة معروفة، ومقبولة، ومكررة، أصبح التواضع مكتملاً. وانطلاقاً من التواضع الضمني تفقد العلة الأولى

وظيفتها الإشتقاقية، وتتجه نحو الإختفاء.

إن كل الكلمات تحتوي على العلة في البداية، وتحتفظ غالبيتها بها زمناً طويلاً إلى حد ما. وعلى هذا، فإن العلة تكون، إذن، إحدى السمات الرئيسة للإشارة اللسانية. وهي تستطيع أن تأخذ أربعة أشكال: فونيتيك، وفوق دلالي، ومورفولوجي، وجناسي. يمثل الشكلان الأولان المظهر الخارجي، ويمثل الشكلان الثانيان المظهر الداخلي.

1. عندما تكون العلة خارجية، فإنها تقوم على العلاقة الموجودة بين الشيء المدلول والشكل الدال خارج النظام اللساني.

آ. توجد علة صوتية (Phonétique) مباشرة وطبيعية في الكلمات المحاكية (Onomatopée). وهذه الكلمات تقوم على التساوق بين الشكل الصوتي والشيء المسمى.

يمكن لبعض هذه الكلمات أن تكون سمعية عندما يكون إنتاجها الصوتي في كلمات مثل: (Glouglou, Claquer). وغالباً ما تكون أيضاً سمعية سينمائية عندما تنتج أعضاء الكلام الحركة التي تساميها (Piquer, Toquer, Glisser). ويمكن أن تكون صوتية مجازية عندما تشبّه الضوضاء أو الحركة بالأشكال، والألوان، والمشاعر، إلى آخره.

إن إشارة الكلمة المحاكية تقوم دائماً على التواضع، وتميل إلى إزالة العلة عنها. ومع هذا، فإن كل اللغات تستخدم العلة الصوتية التي تضطلع بأدوار مهمة تحت أشكال عديدة. ويبدو هذا بدهياً، بصورة خاصة، في اللغة الشعرية. ولقد بينت هذا في مكان آخر عندما تكلمت عن وجود حقول الكلمات المحاكية وأهميتها داخل النظام اللساني.

ب. عندما تحدث تغيرات على المعنى، فثمة علة فوق رمزية ويكون المعنى مرتبطاً في هذه الحالة. ويدل على هذا، التشبيه الذي يشير إلى سمكة باسم الذئب. وهنا نجد دالاً سمعياً أولياً (الشكل الصوتي ذئب). وهو يشير طبيعياً إلى نوع من الحيوانات الثديية. يكون هذا المدلول الأول دالاً ثانوياً، ويقود إلى مدلول آخر وهو (السمكة). ونرى هنا وجود نظامين للإشارة، فالمدلول الأولي يكون دالاً ثانوياً. وتوجد بين المدلول والدال نفس القضايا الدلالية للعلة واختفائها اللاحق.

إن لهذه القضية أهمية كبرى في الإبداع الشعري، والأسطوري، والرمزي. ولقد وصفت هذا في مقال لي عن سميولوجيا التعبير الشعري (المصدر السابق).

2. تعتبر العلة داخلية عندما يكون ينبوعها داخل النظام

اللساني . وليست العلاقة هنا بين الشيء المدلول والشكل الدال ، ولكنها بين الكلمة الواحدة والكلمات الأخرى الموجودة سابقاً في اللغة .

آ . العلة المورفولوجية (الصرفية) : إنها النموذج الأكثر عموماً والأكثر توالداً . وهي تقوم على الإشتقاق والتركيب . ونضرب مثلاً على هذا بكلمة (Bananier) (شجرة أو حديقة موز) . لقد كونت هذه الكلمة انطلاقاً من كلمة (Banana) (موز) . وكان هذا على غرار الكلمات : (Pommier, Cerisier, Abricotier) .

ب . إن العلة الجناسية أكثر اطراداً وأكثر وروداً : وتقوم على التداخل أو الإندماج بين شكلين متجانسين (جناس لفظي) أو متجاورين (كلمات متجانسة) . إن معنى (Jour Ouvrable) (يوم الدوام) مأخوذ من (Ouvrir) (فتح) . وفي حالات كثيرة تجري العلة الداخلية مع العلة الخارجية . ونجد كثيراً من الكلمات المحاكية تدخل ضمن الكلمات المستعملة . ولعل الفضل يعود في هذا إلى وجود البنى في قلب المعجم اللفظي ، ويمكن أن نقول الشيء نفسه بالنسبة للتشبيه أو لبعض الألفاظ الدخيلة . ونستطيع ، حول هذه القضية ، أن نراجع الفصل الخامس ، ونرى الإشتقاق الذي قمت به .

3 . العلة وإزالة العلة : تحتوي كل الكلمات على العلة اشتقاقاً ، سواء أكانت دخيلة (تحتوي على العلة في لغاتها الأصلية) ، أم

محاكية، أم مشتقة، أم مركبة. كما تحتوي عليها عندما تكون هناك تغيرات في المعنى. ولا شيء يمنع، نظرياً من إحداث كلمات قسرية بحتة، وإن لم يعد لمثل هذه الحالات وجود.

تحتوي كل الكلمات على العلة اشتقاقاً. ولكن هذه العلة ـــ وهذه نقطة أساسية ـــ ليسَت محدَّداً ولا مُحدِّداً.

ليست محدَّداً، لأن الإختراع حر دائماً في إطار بعض الحدود: إنه ممكن، وهذا يعني أن كل أسلوب خاص بالعلة ممكن دائماً. ولذا نسمي (Le coucou) (الوقواق) بالكلمة المحاكية، بينما نسمي تشبيهاً (العصفور الدوري ـــ Le moineau) بـ (الراهب الصغير ـــ Le Petit moine)، وكذلك (الهدهدة ـــ La huppe) نسميه بمجاز مرسل (Synecdoque). ونسمي بائع العطور بالعطار، ولكننا نسمي بائع التبغ نسبة إلى التبغ، ونسمي بائع الأدوية بالصيدلي.

والعلة من جهة أخرى، ليست محدِّداً. وهي كذلك لأنها لا تعد ضرورية للمعنى الذي يحققه المشترك التواضعي. غير أنها تنسى بسبب من هذا، ويصبح من الصعب بعد ذلك أن نرى المشترك الإشتقاقي بين (Le moineau) و (Le moine)، وبين (Banque) و (Bane)، وبين (Un sandwich) و (Lord sandwich)، أو بين (Des lunettes) و (La lune).

ويمكن القول إن مقدار ضرورة العلة تأتي من مقدار اختفائها اختفاءً عاماً. أما إذا فرضت العلل نفسها فإن المعنى يتقلص. فالوقواق ليس طائراً له غناء معين فقط. والعطار ليس ذلك الرجل الذي يبيع العطور من دون غيرها. ويتجلى مقصودنا من كل هذا في أنه يجب على الكلمة أن تستدعي مجموع سمات الشيء المسمى، لا أن تستدعي سمة وحيدة للعلة لأنها قد تكون غير جوهرية.

يجب على العلة أن تختفي، إذن، لمصلحة المعنى. أما إذا حدث العكس، فإنها ستقلص المعنى، وقد تهدمه.

لهذه الأسباب، تعتبر قسرية الإشارة شرطاً هاماً لحسن سيرورة وظيفة المعنى. وإن اللغات البحتة، كالجبر، تتكون من مجموعة من النظم الرمزية. وهي حرة من كل مشترك زائد على التواضع.

تكوّن العلة قوة إبداعية ملازمة للغة الاجتماعية. وهذه اللغة عبارة عن عضو حي من أصل تجريبي. وعندما تولد الكلمة وتدخلها العلة (طبيعياً)، هنا فقط تعمل شروط الوظيفة الدلالية على كتم العلة المشتقة. وهي تستطيع، على كل حال، أن تحدث هدماً في المعنى إبان زوالها.

تشكل دراسة هذه القضية المضاعفة واحدة من القضايا الجوهرية لعلم الدلالة. وهذا ما سنجده دون إنقطاع في هذا الكتاب.

6. الخاتمة

إن اللغة نظام من الإشارات. وهي تخدمنا في إيصال الأفكار، باستدعاء صور مفاهيم الأشياء، التي تكونت في أذهاننا، إلى ذهن الآخرين. والجدير بالذكر أن الكلمة لا تنقل الشيء، وإنما تنقل صورة الشيء.

تتكون الإشارة اللسانية من صورتين ذهنيتين مشتركتين: أما الأولى، فتتكون من شكل سمعي دال أو من اسم. وأما الثانية، فتتكون من مفهوم مدلولي أو من معنى.

إن المشترك عبارة عن قضية نفسية، قطبية، ومتبادلة. فالاسم يستدعي المعنى، والمعنى يستدعي الاسم.

إن المشترك الدال وضعي. وهو ينتج عن اتفاق بين المستعملين له.

تحتوي الكلمة على العلة في أصلها، سواء وجدت علاقة طبيعية بين الشكل السمعي والشيء المدلول (الكلمة المحاكية، صرخة التعجب)، أم وجدت علاقة لسانية ضمنية بين الكلمات في داخل

اللغة. وقد تكون هذه العلاقة مورفولوجية (اشتقاق، تركيب)، كما قد تكون دلالية (تغير المعنى).

تبقى العلة الاشتقاقية مصدراً من مصادر القوة الإبداعية في اللغة. ولكنها محتملة، لأن مبدع الكلمة حر دائماً في الاختيار بين طرق العلل الإبداعية المختلفة. ولا تعد العلة من جهة أخرى، ضرورية أو محدداً دلالياً. فهي تميل إلى الاختفاء لصالح المشترك الوضعي الذي يعزز المعنى.

الفصـــل الثــانـــي

المعنـــى
الوظيفــة الدلاليــة

يعطي الإيصال، نظرياً، اسماً واحداً للمعنى الواحد، ومعنى واحداً للاسم الواحد. وفي الواقع، إننا نقول بلا مبالاة: عملية عسكرية وعملية جراحية، مسمار للصيد ومسمار في الرجل. وكذلك الحال بالنسبة لكلمات مثل: (عمل)، (رجل)، (كان). والقاموس يعطي لهذه الكلمات خمسين أو ستين معنى مختلفاً.

إن الجناس (Homonymie) يزيد في عدد معاني الكلمة. ويفسر هذا الأمر وجود كلمات مختلفة في الأصل، ولكنها أصبحت مختلطة عقب التطور الصوتي. ونستدل على هذا بكلمات مثل: (Vert ـــ أخضر)، (Verre ـــ كأس) دون أن نتكلم عن الترادف (Synonyme)، أو عن المفاهيم المحتوية على عدد من الأسماء.

كيف تكون هذه الحالة ممكنة؟ ما هو أصلها، وما هو أثرها على وظيفة الإيصال؟.

1 . المعنـــى وأثـــره

1 . المعنى الأساسي والمعنى السياقي : إذا استطاع اسم من الأسماء أن تكون له معاني عديدة ، فيجب أن نعلم أنها معاني محتملة ، وأن أحد هذه المعاني يتحقق ضمن سياق معين .

تتضمن كل كلمة معنى أساسياً ومعنى سياقياً . فالسياق يحدد المعنى لجمل مثل : « نفخ رولان في البوق » أو « تتتابع العمليات في الدلتا » . ويستدعي الاسم، في كل حالة ، مفهوماً محدداً .

لا يُعرف الالتباس من خارج اللعب بالكلمات . لذا ، فإن القاعدة ، التي تقول بأن لكل اسم معنى ، ضرورية . فاللغة تقضي على إمكانات الاختلاط التي تستطيع أن تلد عبر التطور . وهذا سبب من أسباب تغير المعنى .

تنهل كل كلمة معناها من السياق الذي ترتبط به . ويستطيع هذا المعنى السياقي أن يختلط بالمعنى الأساسي بوساطة كلمات تقنية مثل : « نترات الصودا » أو « Encéphalite » . إن السطح السياقي لهذه الكلمات ضيق الحدود . ولكن ، غالباً ما تظهر الفوارق في سياق مثل : « خفق البيض » Battre des œufs الذي يختلف عن Battre du blé

« درس القمح » أو « أشعل الولاعة » Battre le briquet . وإن بعض الفوارق تدق فتتحقق الكلمة بفعل المشتركات المفهومية المتميزة، كما في « عملية عسكرية، مالية، حسابية، جراحية، إلى آخره » . وأخيراً تستطيع الإختلافات السياقية أن تؤدي إلى انفصال في المعاني القائمة في الأساس. فإذا قلنا : « مسمار الصيد » و « مسمار الرجل » فسنحس بهما ككلمتين لا اتصال بينهما .

2 . المعنى والقيم الأسلوبية : لا يزدوج المعنى الأساسي والمعنى السياقي . هناك دائماً معنى واحد لكل حالة . إنه المعنى السياقي . فالكلمة ضمن سياقها تقابلها صورة مفهومية واحدة .

ولكن، تتكون، في الوقت نفسه، مشتركات أخرى خارج المفاهيم. وهي إذا كانت لا تحدث خللاً في المفهوم، فإنها تضفي عليه من ألوانها . ففي جملة مثل : « تلقى ضربة على الجذرة »، فإن المعنى السياقي لـ « الجذوة » هو الرأس. ولكن الكلمة تستدعي، في الوقت نفسه، وبوساطة بعض المشتركات المتراخية، أفكاراً مضحكة، ومقاصد ساخرة، وأناساً مبتذلين، إلى آخره . ونسميها قيماً تمييزاً لها من المعنى، لأن القيم عبارة عن مشتركات فوق دلالية . وباعتبارها متميزة من المعنى، فإنها تشكل موضوع دراسة خاصة هي الأسلوبية . وتبقى هذه

القيم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقضية المعنى، وتشكل فيها واحداً من العوامل الجوهرية.

تنتسب القيم الأسلوبية إلى نموذجين: فمن جهة هناك كلمات وأشكال تعبر عن انفعالات، ورغبات، ومقاصد المتكلم. وقد بينا المقصد المضحك والساخر الموجود في كلمة (جذوة). ومن جهة أخرى، فإن هذه الكلمة تستدعي وسطاً معيناً، ولا يستخدمها كل الناس، أو إذا شئنا فإن بعضهم يستخدمها في حالات معينة فقط. وهي مشتركة أيضاً مع مجموعة وحالة اجتماعية تنتمي إليها عادة. ونستخلص من هذا وجود قيم تعبيرية، وأخرى اجتماعية أو اجتماعية سياقية.

آ ــ القيم التعبيرية والوظيفية اللغوية المزدوجة

إن اللغة، كما رأينا، وظيفة منطقية أو إدراكية. وهي تقوم بإيصال المفاهيم إلى ذهن المخاطب، وذلك باستدعاء الصور التي تكونت في أذهاننا نحن. وهذا الإيصال هدف من أهداف العلم والمعرفة المنطقية. ولكنه أيضاً، وبشكل غير مباشر، هدف للإيصال الاجتماعي الذي هو في جوهره إرادي: فنحن نوصل أفكارنا لكي نحظى ببعض ردود الفعل، ولذا، فإنه لا يكفي القول «أحبك» أو «هاجموا المعقل»، بل يجب إيصال حرارة هذا الهوى، أو الشعور بأهمية الهجوم

وسرعته. وعندما يقال «أحبك بشدة» أو «إن للهجوم أهمية عظمى»، فإن هذه التعابير ليست غير مفاهيم، وصور بيانية مجردة من الأشياء، وسيتم إيصالها. والجدير بالذكر أن نعرف أن «الكلمة ليست هي الشيء»، وأن استدعاءها له لا يكون مباشرة، مثلها في ذلك مثل الشاشة، حيث إن الشيء نفسه ووحده هو الذي يحرك مشاعرنا.

لهذا، تكون عملية إيصال المفاهيم مصحوبة ببعض الحركات، والإشارات المقلدة، والإنحناءات الصوتية، إلى آخر ذلك. وهذه كلها تعزز انفعالاتنا، ورغباتنا، ومقاصدنا حين نعبر تعبيراً طبيعياً.

إن بعضاً من هذه الإشارات الطبيعية توجد في حالة كمون ضمن اللغة نفسها.

إذا نظرنا إلى الجملة «لقد دهشت كثيراً لرؤيتكم»، فسنرى وجود مفهومين يتوزعهما شكلان من أشكال الصور المفهومية: حضوركم + دهشتي الكبيرة.

وكذلك الحال فإن جملة «أنتم هنا» تعني دائماً الحضور، ولكنها تعبر طبيعياً عن الدهشة، لأن تركيبها أيضاً ينتج طبيعياً الحركة الداخلية للانفعال الذي استدعاه الحضور. وهو عندما جعله واقعياً ومحسوساً فقد حدد هويته وأعطاه قوته الانطباعية. وهذا رد فعل طبيعي،

وتلقائي، وغير شعوري، أو غير مقصود. ولذا فإنه لا ينتسب إلى النظام اللغوي، ولكن انطلاقاً من اللحظة التي تعرف فيها قدرات الاستدعاء للتعجب والإضمار فإن هذه تستطيع أن تستخدم كعلامات مفهومية. وحينئذ «أنتم هنا» تصبح مساوية لـ «أنا مندهش لرؤيتكم هنا، لكن مندهش جداً، فعلاً وحقيقة مندهش، قلق من الدهشة ...».

إن التعبير يحتفظ بصدى أصله الطبيعي ضمن المشتركات المطردة وإن أصبح يشترك مع مفهوم الدهشة تواضعياً: دهشة + نفَس مقطوع، رعشة جسدية، إلى آخره. كل هذه المشتركات، تضعف بدهياً حين تقع ضمن العقد اللغوي وتكتسب معنى تواضعياً ودلالياً.

توجد السيرورة نفسها في التغيرات التعبيرية. فإذا أخذنا تشبيهاً مثل «إبريق قهوة» فسنرى أن له دائماً أصلاً طبيعياً وتلقائياً، ثم سننتهي بأن نعترف له بالمعنى التواضعي. ولكنه، بالرغم من ذلك، يحتفظ بصدى المقصد الأول للسخرية.

إن القيم التعبيرية، إذن، عبارة عن صورة مطردة وتنبني على المعنى. كما أنها مشتركات فوق دلالية ومن أصل طبيعي.

ب ــ القيم الإجتماعية السياقية

إن الكلمات تستدعي عادة صورة هؤلاء الذين يستخدمونها، كما تستدعي صورة الحالات التي اشتركت فيها.

هناك قيم اجتماعية مشتقة من مجموعة اقتصادية، أو مهنية، أو جهوية، إلى آخره. كما أن هناك كلمات ملتصقة بطبيعة الإيصال، أو بالمقاصد والأهداف، أو بحالة المتكلم، أو بالنبرة، أو بالنوع.

وتتناسب مع كل واحدة من هذه الفئات كلمات خاصة بها. وعلى اعتبار أنها مشتركة معها فإنها تستدعيها إلى أذهاننا.

تعتبر هذه المشتركات طبيعية وتلقائية. وأنا حين أتكلم، فبشكل لا إرادي أكشف عن أصلي الاجتماعي، كما أكشف عن الريف الذي أتيت منه، وعن مهنتي، وعن أهدافي، وعن موقعي تجاه محدثي، إلى آخره. ويتم كل هذا عبر مشتركات تنفذها الكلمات وتضاف إلى معانيها. ولكن انطلاقاً من اللحظة التي تعرف فيها قدرتها الاستدعائية، فإنها تصبح طريقة أسلوبية يعبر بها عن وجه خاص من وجوه المعنى. ولقد سبق لنا أن قمنا بتحليل للسيرورة المشتركة، وتكلمنا عن القيم التعبيرية، والقيم الإجتماعية السياقية (التي هي قيم تعبيرية بالقوة)، وقلنا إنها مشتركات فوق دلالية ومن أصل طبيعي.

إذا نظرنا إلى الأولى، فسنرى مشتركاً بالتماثل: هناك تماثل بين

الاسم والحركة الطبيعية للروح (إضمار، تعجب)، كما أن هناك تماثلاً بين الشيء وبين بعض الأشياء الأخرى التي أشركناه فيها (تشبيه).

نجد في حالة القيم الاجتماعية السياقية مشتركاً بالتجاوز. وهذا يعني أن الكلمة قد أخذت لونها نتيجة الاتصال بوساطة ما، أو بالإحتكاك مع بعض الحالات.

لكن، في كلا الحالتين نجد مشتركاً ثانوياً يتضمن العلة ويضاف إلى مشترك أولي تواضعي يدعم المعنى.

نجد، إذن، في كل كلمة أربعة أنواع من المشتركات: المعنى الأساسي، والمعنى السياقي، والقيمة التعبيرية، والقيمة الإجتماعية السياقية. ونمثل كل واحدة في الرسم التالي:

دلالي	أسلوبي
معنى أساسي	قيمة تعبيرية
معنى سياقي	قيمة إجتماعية سياقية

إن هذا الرسم، بكل خاناته، يمثل كلمة واحدة. ولكن كل كلمة تمثل مشتركاً خاصاً. ففي جملة مثل: «عملية شريحة اللحم في حيز الإعداد»، نجد أن الكلمة «عملية» تستدعي:

1. معنى أساسياً: مجموعة من الأعمال المترابطة نقوم بها لغاية محددة.

2. معنى سياقياً: عملية إدارية موجهة ضد مجموعة إقتصادية.

3. قيمة إجتماعية سياقية: يقترح الشكل وجود عملية وبلاغ عسكري.

4. ينتج عن كل هذا قيمة تعبيرية، أي فكرة عملية محكمة البنى، حيوية، قد قُرر المضي فيها حتى النهاية. ويظهر، هنا، أثر مضحك وتهكمي، ينهل من عدم ملاءمة المعنى للواقع، وذلك ضمن قيمة مبالغة لعملية ليس لنا فيها أي اعتقاد.

قد يحدث، وذلك حسب الأشخاص والمصادفات، في داخل الكلمة تبادلات مستمرة بين هذه المشتركات المختلفة. وتتجلى وظيفة المشتركات الثلاثة الثانوية في تحديد وتلوين المعنى الأساسي. ولكن تستطيع هذه الوظائف في حالة تطورها أن تحرفه، وأن تطمسه، أو أن

تحل مكانه تماماً. ويشكل هذا الأمر قضية انزلاقات المعنى.

2. الخلـق الدلالـي

من أين تأتي الكلمات؟ كيف يتكون العقد الدلالي، والعقد الجماعي الذي يشرك اسماً ومعنى وقيماً ثانوية تلونه؟

إن الكلمات من صنع إنساني. وهي، ككل المصنوعات الإنسانية، ذات حياة خاصة. فنحن نصنع الكلمات، وهي تصنع نفسها.

يحدث هذا كما لو كنا في بستان. إننا نختار الأنواع، ونفرز الحبوب، كما أننا نزرع، وقد نطعِّم الأشجار، ونشبك الأغصان أو نقلعها، إلى آخره. أما الزروع، فبعضها يعيش، وبعضها يغتني، كما أن بعضها الآخر يذوي أو قد يموت اختناقاً بسبب وجود زرعة مجاورة قوية جداً. وقد يحدث تهجين طبيعي.

واللغة، هذه هي حالها. فقد يوجد خلق إرادي وتطور تلقائي فيها.

نخلق الكلمات لكي نعطي أسماء للأشياء، سواء أكانت

الأشياء بلا اسم، أم كانت لها أسماء ولكنها لم تعد تحافظ على وظائفهابشكل فعال. وقد رأينا هذه الوظائف المضاعفة: إدراكية أو تعبيرية أو أسلوبية.

نستخلص، مما تقدم، وجود شكل مضاعف للتسمية: تستطيع أن تشير موضوعياً إلى كلمة ما: قدم الغزالة، رائي، تحليل نفسي، إلى آخره. كما تستطيع أن تلون المفهوم بمشتركات تعبيرية: لا زوردي = السماء الزرقاء الصافية. معيزة = ماعز صغيرة وجميلة، إلى آخره.

تملك اللغة في الحالتين أداتين:

آ. يُنتج الشكل الصوتي الضوضاء المشار إليها ضمن الكلمات المحاكية: الرنين، هدير الأمواج، النقيق، إلى آخره. أو هو يشير بإشراكها عن طريق المجاورة إلى الحيوان أو إلى الشيء الذي أحدث الضوضاء: العصفور.

يبقى مردود الكلمات المحاكية، باعتبار أنه محدود ضمن ميدان الأصوات، ضعيفاً في تسمية المفاهيم. وقد استقل، على كل حال، منذ أمد بعيد.

وعلى العكس من ذلك، فإن دور قيم الكلمات المحاكية كبير

جداً فيما يخص الأسلوب، والأسلوب الشعري خاصة. وذلك لأن الأسلوب الشعري يقيم كل المشتركات الثانوية الضمنية والموجودة بين الشكل الصوتي والمعنى. وهو يقيمها ليس بين صوتين فقط ولكن بشكل أدق بين أصوات، وألوان، ومشاعر عدة.

ب. إن الكلمات المستعارة عبارة عن كلمات أتت من الخارج مع الأشياء التي تشير إليها عامة. وتبقى هذه الكلمات ينبوعاً للقيم الأسلوبية ما بقيت مرتبطة بأوطانها أو بمحيطها الأصلي الـذي تستدعيه باستمرار.

ج. يسمح لنا كل من الاشتقاق والتركيب بانتاج كلمات جديدة من أشكال سابقة: ذرّي، كهربائي، علم المقاييس النفسية.

هذه أفضل طريقة للتسمية المفهومية البحتة. ومع ذلك فإن الأمر لا يخلو من الابتداع أو من الاستعمال الأسلوبي، ولنا مثل عن هذا في التصغير، وفي زيادة العواطف، أو في التحقير.

د. تقضي، الطريقة الأخيرة، أن ينتقل المعنى الذي من شأنه أن يحدد مفهوماً ما إلى اسم كان يخص مفهوماً آخر من قبل. ويكون ذلك بوساطة تماثلات شكلية، أو لونية أو وظيفية مع شيء آخر. ونضرب مثلاً على ذلك بكلمة مطرقة، حيث يمكن تسميتها

« كعب الغزال » ، وكذلك الحال بالنسبة لقطعة من الورق حيث يمكن تسميتها « ورقة » (كورقة الشجر) . ويكون المشترك مشتركاً بالتجاور عندما نأخذ الكل في موضع الجزء ، أو عندما نأخذ المنتج في موضع الإنتاج ، وذلك كأن نجعل : « بوردو » اسماً للخمر المُنتج في مدينة « بوردو » .

لهذه التغيرات دور خاص ومهم في التسمية الأسلوبية . وتعتبر في هذه الحالة نقطة لا نزلاق لاحق في المعنى الأساس .

إذا نظرنا إلى الكلمات المحاكية ، والألفاظ الدخيلة ، والتشكيلات الصيغية (المورفولوجية) والتغيرات المعنوية ، فسنرى بأنها تشكل الأدوات التي تستخدمها اللغة في خلق الكلمات .

نستخلص من هذا أن كل خلق شفوي يحتوي على العلة دائماً . وتعتمد هذه العملية على مجموعة من المشتركات فوق التواضعية ، مثل المشترك الطبيعي بين الدال والمدلول (كلمات محاكية ، استعارات) ، ومثل المشتركات الداخلية (صيغية ، أو الجناس) .

ولكن العلة الاشتقاقية ، وهنا تكمن الأهمية ، ليست ضرورية لنقل المعنى الأساس . فهي تقوم على مشترك تواضعي ، وهذا المشترك يبقى دائماً قابلاً للخلاف .

نخرج ، هنا ، من ميدان الخلق الواعي ، لأن اختفاء العلة ينتج عن تطور وعن انزلاق تلقائي في المعنى .

3 . التطـــور الـــدلالـــي

إن التسمية الدلالية أو الأسلوبية فعل واع وخلاق . وعندما يتم خلق الكلمة سواء أكان ذلك بنقل المعنى أو بأي صورة أخرى ، فإن معناها يستطيع أن يتطور تلقائياً . وهو يتطور ، في الواقع ، في كل الحالات .

لقد رأينا أن كل كلمة عبارة عن مجموعة من المشتركات . ويكفي لواحدة منها أن تتطور لكي تغطي على المعنى وتهدمه . إنها تكتمه أولاً ثم تقوم بتعويضه .

لو أخذنا كلمة « رأس » ، فسنجد أنها كانت في الأصل عبارة عن تشبيه أسلوبي مكون من مشترك هو الرأس (في البداية كانت كلمة « الرئيس ») و (إبريق من الطين) . وكان يقصد بهذا التشبيه السوقي الضحك والسخرية . وهذا أمر نجده في كل اللغات . ونرى في الفرنسية المعاصرة كلمات معبرة عن هذا ، مثلاً : « ليمونة » ، « بطاطا » ، « إبريق قهوة » ، إلى آخره .

هناك بعد ذلك انزلاق في علاقة الاشتراك يصورها الرسم البياني التالي :

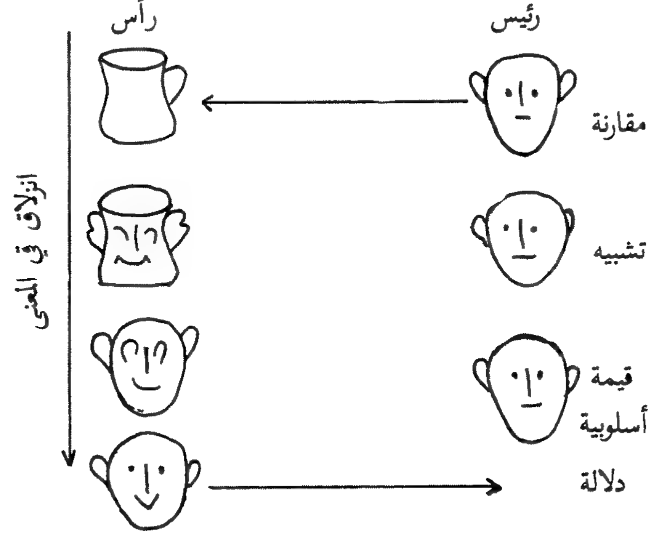

ــ أولاً المقارنة ، أي اشتراك صورتين مستقلتين . الرأس إلى جانب الإبريق . رئيس كالإبريق .(رأس) .

ــ ثانياً التشبيه أو حذف الصورتين . الرأس مسجل في الإبريق . الرئيس هو الإبريق .

ــ ثالثاً القيمة الأسلوبية . تحذف صورة الإبريق ولا يبقى إلا

مشترك غامض مع رئيس مدور وفظ.

ــ رابعاً وأخيراً، تأخذ الكلمة دلالتها، ويختفي الانعكاس التعبيري. وهنا تشير الكلمة «رأس» إلى مفهوم مجرد وتحل محل كلمة «رئيس».

ومع ذلك، فإن النقطة الأخيرة تعيش مع قيمة اجتماعية سياقية. إنها كلمة قديمة وخاصة بالنبلاء: رأس «شاخ في الجندية»، وتظهر على يمين كلمة «رأس» التي أخذت دلالتها، كلمات مثل: «أجاصة»، «ليمونة»، «توتة». وقد تحل هذه الكلمات محل كلمة رأس يوماً ما.

ونلاحظ وجود انتقال في داخل الخانة الخاصة بالمشتركات الدالة: فكلمة رأس قد انتقلت من الخانة «قيمة تعبيرية» إلى الخانة «معنى أساسي»، ثم إلى الخانة «قيمة إجتماعية سياقية».

ونجد انتقالاً آخر يرد كثيراً وبشكل طبيعي جداً. إنه انتقال المعنى السياقي نحو المعنى الأساسي. فإذا أخذنا كلمة مثل: «مقليات ــ مقالي ــ Frites» فسنجد أن من أحد معانيها «بطاطا مقلية». وقد أدى هذه المعنى إلى القضاء على كل المعاني الأخرى.

وهكذا نجد أن معنى الكلمات ينتج من إجراء مضاعف: التسمية، والتطور التلقائي لقيم المعنى. وهاتان الظاهرتان متكاملتان

ومترابطتان . ولكن يجب عليهما أن تتميزا . فالتسمية فعل واع وخلاق ، ومن أصل فردي. وهو في الوقت نفسه غير متصل. فالفرد يخلق كلمة . وهذه الكلمة تأخذ وظيفتها فوراً بفضل تواضع الناس عليها . وأما الإنتقال فهو على العكس من ذلك . إنه غير واع ومتدرج . وهو وإن كان يحتوي على اتفاق جماعي ، إلا أن هذا الاتفاق غير ظاهر . وإن المعنى الجديد يفرض نفسه شيئاً فشيئاً بموجب الأمر الواقع . ويظل هكذا حتى يقبله .

هناك ، إذن ، من جهة أولى خلق فردي ، واع ، وغير متصل ، ويحتوي على العلة . وهناك من جهة أخرى انبثاث إجتماعي ، غير واع ، ومتدرج ، وينتج عنه مسح للعلة .

نلاحظ الدور الذي تقوم به «تغيرات المعنى» في هذا الإجراء المضاعف . إنه يتم في وقت واحد على شكل تحول دلالي أو أسلوبي في مستوى الخلق الفردي ، كما يتم على شكل انزلاق نحو الانبثاث الاجتماعي .

لن تأخذنا الدهشة ، إذن ، إذا رأينا أن علم معنى الكلمات قد حدد لنفسه في الأصل دراسة تغيرات المعنى إلى درجة الذوبان فيها .

إن تطورات الدلالة تركز ، الآن ، الأهمية على هذه القضية وتضعها تحت ضوء جديد .

الفصــل الثــالــث

تغيــرات المعنــى
أشــكالــها

1 . البلاغة : إحصاء وصفي

لقد عرفت تغيرات المعنى ووصفت منذ القديم . وتعد دراسة التغيرات جزءاً هاماً من البلاغة أو علم البيان . وإن تغيرات المعنى أو الاستعارات عبارة عن « صور لفظية » . وتكون مع الصور الأخرى صوراً للفصاحة ، وللبناء ، وللتفكير ، وللطرق الأسلوبية ، أي تكوّن أشكالاً أكثر إثارة للإعجاب ، وأكثر حدة ، وتعطي الكلام طاقة أكبر . وهذا يتناسب جيداً مع ما سميناه حتى الآن « القيم التعبيرية » .

يعود تاريخ نظرية الاستعارات إلى عهد أرسطو . ولقد تلقت هذه النظرية تطوراً هائلاً في عصر أليكساندرين ولا تين . ولقد أحصى القواعديون اللاتينيون أربعة عشر نوعاً :

« التشبيـــه ـــ La métaphore » ، « المجاز المرسل ـــ Synecdoque » ،

« الكناية ــ Métonymie » ، « الاستعارة المجردة ــ L'antonomase » ، « المجاز ــ La catachrèse » ، « الكلمة الحاكية ــ L'onomatopée » ، « النعت ــ L'épithète » ، « الاستعارة الرمزية ــ L'allégorie » ، « الصورة البلاغية ــ La métalepse » ، « الأحجية والسخرية ــ L'ironie et l'énigme » ، وهاتان موزعتان في « التورية ــ Périphrase » ، « تقديم الكلام وتأخيره ــ Hyperbate » ، « المبالغة ــ Hyperbole » .

ولقد تردد الناس في كل الأزمنة إزاء التعريف . ومع ذلك فقد وصل التصنيف والاصطلاح إلى يومنا هذا بعد أن عبرا بلاغة القرون الوسطى ، والبلاغة الكلاسيكية .

يرى الدلاليون المتقدمون مثل Darmestéter و Bréal في المجاز المرسل وفي الكناية والتشبيه النماذج الأساسية لتغيرات المعنى .

ولقد كان التشبيه ومايزال موضوع دراسات عديدة .

هناك كلمات تعتبر دائماً بمثابة مفاهيم أو مصطلحات جارية ، مثل : التشبيه ، والمبالغة ، والتورية .

ولو نظرنا إلى بعض التحليلات الحديثة التي قام بها Stern أو التي قام بها Ullmann ، فسنجد أن التعاريف والتصانيف تقوم عندهم

على أسس جديدة، ولكنها مع ذلك تحتفظ بالاستعارات الرئيسة ضمن الأطر البيانية التي وضعوها.

غير أن تطورات التحليل الدلالي لا تستطيع إلا أن تبين ضعف قيمهم المعرفية (Épistémologique) مما يدعو إلى إقامة تصنيفات أخرى.

2. الشكل المنطقي لتغيرات المعنى

إن الدلاليين الأوائل أمثال Darmesteter و Paul Bréal يضعون الاستعارات في إطار منطقي، وذلك طبقاً لما يكون من تقييد وامتداد، أو تحول في المعنى.

يكوّن كل من المجاز المرسل والحذف حالات مقيدة أو ممتدة للمعنى. أما التقييد فيكون عندما نأخذ الجزء مكان الكل، أو عندما نأخذ النوع مكان الجنس، إلى آخره. وأما الامتداد فيكون في الحالات المعاكسة.

أما الكناية والتشبيه فعبارة عن تحويلات في المعنى.

ونجد لهذا المخطط وصفاً أكثر كمالاً في كتاب Darmesteter

الانحراف، معزولة أو مركبة، فإنها تنتهي دائماً إلى تغيير موضع العلاقة بين الدال والمدلول (Cours...109).

يمكن أن نضيف إلى هذا بأن فصلاً كاملاً من كتاب سوسير (Cours...) قد خصص لإثبات الطبيعة النفسية المشتركة لهذه العلاقة. وبذلك نحظى بأول تعريف سيميولوجي شامل لتغير المعنى. وقد تبنت هذا التعريف كل النظريات التي تستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار.

وسنحاول هنا أن نقدم ملخصاً مختصراً للغاية عن نظريتين حديثتين جداً، وكاملتين في الوقت نفسه، فهما الأكثر تناسقاً بين النظريات.

1 . تصنيف Stern :

لقد كتب Stern كتاباً سماه Meaning and change of meaning (المعنى وتغيرات المعنى). وهو عبارة عن جدول عولجت فيه تغيرات المعنى من وجهة نظر سببية ووظائفية. هذا، بالإضافة إلى أنها قد صنفت في الوقت نفسه حسب إطار سيميولوجي مشتق من مثلث (Ogden) و (Richards).

لقد فرق المؤلف فيه بين التغيرات الخارجية والتغيرات اللسانية.

كان لا بد من الانتظار حتى بداية هذا القرن حين جاء كل من Schuchardt و Saussure و Wundt . فمع هؤلاء نقف على نظرية في تغيرات المعنى قائمة على معايير سيميولوجية .

يركز Wundt في هذه القضية على الطبيعة النفسية المشتركة ، كما يركز على النموذجين الكبيرين للمشترك : المشترك بالتماثل ، والمشترك بالتجاور . أما التعارض بين الشكل الصوتي والمعنى فيظهر ضمنياً في تصنيفه . إنه يميز بين تحول الاسم وبين التشبيه الذي هو تحول في المعنى . ونجد Schuchardt يفعل ذلك أيضاً . إنه يعـارض بين دراسة الأسماء ودراسة المعنى أو الدلالة .

أما Saussure فلا يستطيع إلا أن يركز على هذا التمييز : « يأخذ الانحراف عبر الزمن أشكالاً عدة . وكل شكل يعطي المادة لتكوين فصل لساني هام . وسنستخلص ماهو مهم دون الدخـــول في التفاصيل . ففي البداية ، يجب ألا نخطىء في المعنى الذي تتضمنه كلمة انحراف . لأن هذا قد يؤدي إلى الإعتقاد بأن القضية تمس بصورة خاصة التغيرات الصوتية التي طرأت على الدال ، أو أيضاً تغيرات المعنى التي أصابت المدلول .

إن هذه النظرة غير كافية . وعلى كل حال مهما كانت عوامل

ويحتوي كل نوع من هذه الأنواع على طبقتين. وتنقسم كل طبقة إلى أقسام عدة. وبهذا يكون لدينا الجدول التالي:

1. تغييرات خارجية: تبديل (موضوعي، إدراكي، ذاتي).

2. تغييرات لسانية:

- انزياح في العلاقة الشفوية (للاسم).

1. قياس (تنسيقي، تلازمي، صوتي).
2. اختصار (تجذير، إضمار).

- انزياح في العلاقات المرجعية (للمعنى).

1. تسمية (تركيب واشتقاق، تحويل قصدي، صور).
2. تحويل (غير قصدي).

- انزياح في العلاقة الذاتية بين الكلمة والمتكلمين.

1. تبديل.
2. ملاءمة.

ينهل القياس من تبادل العلاقة بين مرجعين. فيكون مادياً

أما الأولى فتستقي من تغير المرجع، أو من تغير الشيء المسمى دون تغيير في الاسم. وهكذا، فإننا ما زلنا نعطي اسم ريشة (أي قلم) لشيء لم يعد (مصنوعاً) من ريشة (الطير). وكذلك الحال بالنسبة لكلمة (ذرة). إنها تشير إلى مفهوم قد تغير كلياً.

سنذهب فيما بعد إلى تحليل آلية الأسباب الخاصة بهذه الظاهرة. أما الآن، فإننا نرى أنها لا تؤثر، على الأقل في الظاهر، على النظام اللغوي. وقد لاحظ Darmesteter من قبل وجود «نسيان» في هذه الحالة. وقد فضلنا أن نسمي هذا الشيء باختفاء العلة المشتقة. وسيقول Ullmann هذه «محافظة لسانية».

أما التغيرات اللسانية، فهي على العكس من ذلك، إذ إنها تؤثر مباشرة على اللغة وهي تكوّن تبديلاً فعلياً للاسم والمعنى في داخل النظام. وقد فرق Stern بين أنواع رئيسة ثلاثة:

1. النوع الأول، ويظهر فيه انزياح لعلاقة الشفوية أو للاسم.
2. النوع الثاني، ويظهر فيه انزياح للعلاقة المرجعية أو للمعنى.
3. النوع الثالث، ويظهر فيه انزياح للعلاقة الذاتية بين الكلمة والمتكلم.

ب. الاختصار الإضماري أو الحذفي: ويكون بإسقاط كلمة لتعبير مركب مثل: Des frites (مقالي)، La capitale (العاصمة).

أما التسمية فهي عبارة عن إعطاء اسم جديد لمفهوم ما. وقد ميز Stern التسمية المقصودة والواعية من التسمية غير المقصودة. وعلى هذا فهناك يوجد:

آ. تسمية مقصودة: وتكون عندما نعمد إلى تشكيل كلمة إما عن طريق التركيب أو عن طريق الاشتقاق.

ب. تحويل قصدي وغير تصويري: ويكون في التشبيهات المفهومية البحتة، مثل «قدم الغزالة» و «كرة الثلج».

ج. صور أسلوبية من أصل تعبيري: كالتلطيف والمبالغة، وخاصة التشبيه الأسلوبي، وكذلك التورية والسخرية.

إن التحويل المسمى بالتحويل المنظم يكون على العكس من التحويل القصدي. إنه يقوم على هوية المظهر (ورقة كتابة)، وعلى الوظيفة (سرير نهر ما)، أو على الحالة (قدم جبل ما)، أي يكون بين مرجعين بآن واحد.

وينتج التبديل عن تغير في الفكرة التي يتخذها المتكلم عن

عندما يعتمد على هوية جذر لمجموعة إعرابية واشتقاقية، أو على مجموعة من المفاهيم. ويكون علائقياً عندما يدخل في علاقة بين كلمات لها نفس الوظيفة (الزمن، الطبيعة، الحال).

ويمثل القياس بشكليه المادي والعلائقي ثلاثة نماذج:

آ. القياس التركيبي: ويكون حين نعمد إلى إعادة تشكيل الصيغ (إشتقاق، تركيب، إعراب).

ب. القياس الترابطي: ويكون عندما نعطي للمرجع اسماً يربطه معناه في اللغة باسم آخر (ترادف)، أو عندما يربطه معناه بشيء آخر له وجود في لغة أجنبية (نسخ دلالي). ونضرب على هذا مثلاً بالكلمة الفرنسية «Réaliser». إنها كلمة منسوخة عن الكلمة الإنكليزية «Realize».

ج. القياس الصوتي: وهو القياس الذي يؤدي إلى تشابه في الاسم بعد حصول تشابه في الصوت: عدوى، اشتقاق شعبي.

ويتمثل الاختصار في وجهين:

آ. الاختصار الجذري: مثل Auto (اختصاراً لكلمة Automobile ــ سيارة)، و Ciné (اختصار لكلمة Cinéma ــ دار الخيالة).

هذا، فإنه ينسق بين فوائد عديدة. فهو يحتوي، إلى جانب البساطة الأنيقة، على قيمة عليا من قيم المنهج الكشفي.

لقد عزل Ullmann كما فعل Stern كل التغيرات ذات الأصل التاريخي، وفوق اللساني، ونسبها إلى غريزة المحافظة على اللغة. ولاحظ بعد هذا، بأنه يمكن أن يكون فيها تحول في الاسم أو تحول في المعنى. وقد لاحظ أيضاً أن كل حالة من الحالات قد تمت إما عن طريق التماثل أو عن طريق التجاور في الأسماء والمعاني. وهناك فئة أخيرة تحتوي على التغيرات المركبة الناتجة عن مشتركات معقدة. وينتج عن هذا البيان التالي:

1. تحولات الاسم، وتأتي:

آ. إما عن طريق التماثل بين المعاني.
ب. وإما عن طريق التجاور بين المعاني.

2. تحولات المعنى، وتأتي:

آ. إما عن طريق التماثل بين الأسماء.
ب. وإما عن طريق التجاور بين الأسماء.

3. التغيرات المركبة.

المرجع . وذلك حين يضع في اعتباره بعضاً من مميزاته . فهو إما أن يرى بشكل أساسي المادة في الموضوع (مرمر) ، أو الجزء في الكل (شراع) ، أو المنتج في الإنتاج (من بوردو) ، إلى آخره . ويدخل في هذه الفئة المجاز المرسل والكناية للبلاغة القديمة .

أما الملاءمة فهي طريقة من طرق التبديل . وهي تحدث عندما يؤخذ الذهن بميزة جديدة للمرجع . وعلى هذا ، فإن كلمة (Cor ــ بوق) « الصيد » تأخذ اسمها تبديلياً (مجاز مرسل) من (القرن) الذي صنعت منه مبدئياً . ثم تختفي العلة الاشتقاقية ، وتظهر الميزة الجوهرية لكلمة (بوق) ، كما تظهر معها قدرتها على إشاعة نموذج معين من الأصوات مثل : (Le cor de chasse) ، (Le cornet à piston) ، دون أن يكون لهذه أية علاقة شكلية أو مادية مع (La corne) . ويسمي Darmesteter هذه القضية بالإطراد .

2 ــ تصنيف Ullmann :

لقد أعاد Ullmann في كتابه The principles of semantics تصنيف نماذج Stern ، وذلك حسب رسم بياني سيميولوجي كان متقيداً فيه بسوسير .

إن هذا التصنيف من وجهة نظر علمية مجرد وقليل المرونة . ومع

(حياة الكلمات La vie des mots) . ونرى فيه البساطة والتناسق ، كما نرى أنه يضيف نظاماً منطقياً إلى جدول البلاغة القديمة .

لقد كان هذا الكتاب أحسن شيء ممكن في عصر لم تعرف فيه بعد أسس علم النفس والسيميولوجيا . ولكن مع تطورات نظرية الإشارات ، ومع التحليل الذي صاحب قضية الدال ، انتهى الأمر بهذا الكتاب إلى ضياع كل قيمة كشفية له ، وفقد جزءاً من سبب وجوده .

3 . الشكل الدلالي لتغيرات المعنى

يقترح التحليل الدلالي معايير جديدة للتصنيف ، كما يقترح مصطلحات جديدة تبرز بوضوح مميزات القضية الدلالية : فهناك من جهة أولى قطبية الدال والمدلول ، كما أن هناك من جهة ثانية الطبيعة النفسية المشتركة لعلاقاتها ، وذلك في شكليها التماثلي والتجاوري .

لقد ظهر التمييز سابقاً بين الدال والمدلول في كتاب (La glossology) لمؤلفه (G. Grote) عام (1871) . وقد عارض المؤلف في هذا الكتاب بين الكلمة كشكل صوتي وبين الكلمة كفكرة . واستعمل فيه مجموعة من المصطلحات الثقيلة فلم تستحوذ على انتباه اللسانيين .

	آ	ب
	تماثل	تجاور
1. معنى	1 آ	1 ب
2. أسماء	2 آ	2 ب

يغطي هذا التصنيف، كل سمات المعنى إذا وضعت في حيز البداهة. فقطبية الدال (الاسم) والمدلول (المعنى) توجد من جهة أولى. كما توجد، من جهة ثانية، الطبيعة النفسية المشتركة للقضية في شكلها المضاعف، وذلك إما عن طريق التماثل، وإما عن طريق التجاور بين الصور الذهنية المشتركة.

وإن كلمة مثل: «Chapeau ــ قبعة» تجعلني، في الواقع، أفكر في:

1 . آ . «Casque ــ قبعة»، «Béret ــ قبعة»، إلى آخره، حيث يوجد تماثل في المعنى.

1 . ب . «Tête ــ رأس»، «Veston ــ سترة»، إلى آخره، حيث يوجد تجاور في المعنى.

2 . آ . « Chapelle ـــ مصلى » ، « Chapon ـــ طير يدعى مُسَمَّن » ، « Drapeau ـــ عَلَم » ، « Crapeau ـــ غراب » حيث يوجد تماثل في الاسم .

2 . ب . « Claque ـــ قبعـــة ذات قرنين » ، « Melon ـــ بطيـخ » حيث يوجـد تجاور في الاسم ، وذلك كما في التعـــبيرات (« Claque قبعـة » ـــ « Chapeau قبعـة ») (« Melon بطيـــــخ » ـــ « Chapeau قبعة ») .

يمكن ، أخيراً ، أن نرى تعبيرات مركبة تحتوي في الوقت نفسه على الاسم والمعنى . ومثال ذلك : Chapeau>Melon ، حيث هنـاك تجاور في الأسماء وتماثل في المعاني وقد نرى تراكيب أشد تعقيداً ، مثل : Chasseur ـــ صياد > Alpin ـــ ألبي (نسبة إلى جبال الألب) .

إن الذين اعتادوا الاختبارات النفسيـة التحليلية أو اللـعب بالأوراق الصغيرة ، يلاحظون أنه يمكن دائماً رد الظاهرة إلى مشترك عن طريق التماثل أو التجاور بين اسمين أو بين معنيين .

إن الرسم البياني الذي قدمه Ullmann يتضمـن ، إذن ، كل الأنواع الممكنة للمشتركات ، وبالنتيجة تغير المعاني .

1 . آ . تحول الاسم عن طريق تماثل المعاني : وهـو الأكثر

وجوداً من كل تغيرات المعنى. والتشبيه يدل على هذا لأنه النموذج الأكثر شيوعاً.

ويمكن لتماثل المعاني أن يكون:

آ. جوهرياً: وهو تماثل في الشكل بين ورقة شجر، وورقة كتابة. وكذلك هو تماثل في الوظيفة، وتماثل في الحالة.

ب. تداعياً تلقائياً: وهو تمثيل لصوت في لون، أو للون في رائحة.

ج. عاطفياً: ويكون هذا عندما يتمثل الشعور في شيء واقعي تنسب إليه الصفات الموجودة في تعبيرات مثل: «صداقة حميمة»، «طبع هادىء»، إلى آخره.

ويمكن للتحويل أن يكون مباشراً، كما يمكنه أن يكون مرتبطاً بالقياس. ونضرب مثلاً على هذا بفعل «Polir ـــ صقل»: لقد أخذ هذا الفعل في اللغة العامية معنى «Voler ـــ سرق»، ثم استعملت كل مترادفاته بعد ذلك لإفادة المعنى نفسه: Nettoyer ـــ نظف «Fourbir ـــ جلا». وتم هذا الاستعمال بناء على قضية مسماة بالاشتقاق الترادفي.

يستطيع القياس أن يحتل مركز الأهمية في حقل دلالي. فإذا نظرنا في اللغة الدارجة العامية للجنود عام /1914/، فسنرى أنهم

يسمون المطبخ المتحرك بالدبابة، ويسمون الفاصولياء بالقذيفة ذات الشظايا، ويسمون فصوص الفاصولياء بالرشاش، إلى آخر ذلك.

إن الكلمات المنسوخة (أي الكلمات المكونة من أخرى أجنبية) تعتمد أساساً على القياس. فالفرنسية كونت كلمة « Dada » من الإنكليزية « Hobby »، أي بمعنى انشغال مفضل، وذلك على اعتبار أن كلمة Hobby تشكل حذفاً صنعته كلمتان « Hobby horse »، أي حصان الطفل الخشبي.

نرى في كل هذه الحالات أن التحويل مرتبط. ففي البدء يكون التحويل الأول: المطبخ عبارة عن دبابة (تماثل في الشكل). ثم يكون القياس، فالفاصولياء بالقياس إلى متحرك تماماً كالقذائف بالقياس إلى الدبابة. المطبخ يوزع الفاصولياء كما تقذف الدبابة القذائف (تماثل في الوظيفة). ولكن هذا المشترك لا يكفي وحده لتحويل الاسم الذي ينهل من التشبيه الأول.

ليست هذه المناوبات القياسية مقسورة فقط على تحويلات الاسم عن طريق تحويلات المعنى. إننا نستطيع أن نجد ذلك في كل الأنواع الأخرى.

1 . ب . تحويل الاسم عن طريق تجاور المعاني

إن المجاز المرسل والكناية عبارة عن تحولات في الاسم عن طريق تجاور المعاني. وهي تقتضي، كما نعلم، أخذ الجزء مكان الكل، والمضمون من أجل الشكل، والأداة محل الفعل، إلى آخره. والعكس كذلك.

يمكن لتجاور المعنيين أن يكون مكانياً، أو زمانياً، أو سببياً:

آ. يكون مكانياً كما في كلمة مكتب. فالقماش الناعم يميز الأثاث الذي يغطيه، ثم إن الأثاث يميز الغرفة التي يوجد فيها.

ب. ويكون زمانياً كما في كلمة « Vêpres » (وهي تعني صلاة العصر عند المسيحيين). نرى هنا أن الواجب الديني قد أخذ اسم الساعة التي تقام فيها (صلاة العصر=المساء).

ج. وتنتمي إلى هذه المجموعة الأحاسيس المتزامنة والمستعارة. ويشترك فيها شكل الشيء بالتجاور مع لونه ورائحته.

2. آ. تحويل يجريه تماثل الأسماء

إن العدوى الصوتية والاشتقاق الشعبي عبارة عن تحويلات معنوية أحدثها تماثل لأسماء. فعندما تختلط كلمات مثل: (Recouvrer ـ استرجع) مع (Recouvrir ـ غطى)، (Bourg ـ Fors ـ En dehors du bourg ـ خارج البلدة) مع (Faux bourg ـ

أطراف المدينة)، فإن اختلاط الأشكال يحدث هدماً في المعنى، وقد يؤدي إلى تحويل فعلي فيه.

2. ب. تحويل يجريه تجاور الأسماء

يجد الحذف والعدوى النحوية مصدرهما في الإشتراك بين اسمين متجاورين ضمن السياق نفسه.

فعندما يختصر التعبير (Ville capitale ــــ المدينة العاصمة) ليصبح (Capitale ــــ عاصمة)، فإن كلمة (Ville ــــ مدينة) تحذف لأنها مشتركة مع (عاصمة) بشكل خفي جداً، ولكن كلمة (عاصمة) بالمقابل تستدعيها آلياً.

ونستطيع أن نكرر نفس ما قلناه بالنسبة لـ (Pas) و (Point)، حيث اتخذت هاتان الأداتان قيمة النفي عبر اتصالهما المستمر (ne ــــ لا).

3. ب. تحويل تركيبي

ليست آلية التحويلات بسيطة دائماً. إنها تقوم ــــ ولا نستثني من هذا بعض الأمثلة التي أعطيناها ــــ في معظم الأحيان على علاقات معقدة يصعب غالباً تحديد حدودها.

فعندما تسمي بعض اللهجات (La cuisine ــــ المطبخ) باسم

(Hôtel ـــ فندق) فقد نعتقد أن للتحويل مصدراً في التجاور المكاني للمعنى ، أي أن الكل يؤخذ مكان الجزء . وفي الواقع ، هناك اتصال قياسي تم عبر تحويل سابق : (Maison ـــ بيت) صار (Cuisine ـــ مطبخ) .

تعني كلمة (Beaujolais) كأساً من الخمر المصنوع في مدينة بوجوليه . وهذا يعني وجود حذف مضاعف يقوم أساسه على التجاور النحوي للأسماء : فمن جهة أولى لدينا (Verre ـــ كأس)
و (Vin ـــ خمر) ، ومن جهة ثانية لدينا (Vin ـــ خمر)
و (Beaujolais) اسم المدينة . كما توجد في الوقت نفسه كناية مضاعفة في مشترك المعنيين المتجاورين : (الوعاء ـــ المادة)
و (المكان ـــ المنتوج) .

وهكذا نصادف كل النماذج الممكنة للتأليف المختلط . فمن ذلك أيضاً ، المنسوخات الدلالية ، لأنها تجد مصدرها في المشترك المضاعف ، وهذا من خلال تماثل يشمل الاسم والمعنى في الوقت نفسه . ونستطيع أن نقف على هذا الأمر إذا ضربنا مثلاً بالفعل الفرنسي (Réaliser) وذلك إذا أخذ بمعنى (فهم ، أدرك ـــ Se rendre compte) إنه هنا نسخ عن الإنكليزية (Realize) . وكذلك الحال بالنسبة لكلمة

(Indésirable ـــ غير مرغوب فيه)، إذ فيها نسخ، ثم حذفٌ لم يكن موجوداً في (Undesurable alien) .

إن تصنيف Ullmann يغطي مجموع تغيرات المعنى ضمن إطار بسيط جداً . وله فضل بالإضافة إلى هذا، في تبيان الخصائص النفسية المشتركة بداهة، وكذلك الخصائص الوظيفية للقضية . وإن هذا التصنيف، كمايؤكد المصنف نفسه، يستطيع أن يحتوي على أي رسم بياني مهما كان . ولعله من المجدي هنا، أن نعطي مثلاً عن التداخل بين تصنيف Ullmann وتصنيف Stern . وفي الحقيقة، إنه مأخوذ من كتاب : « The Principles of semantics » .

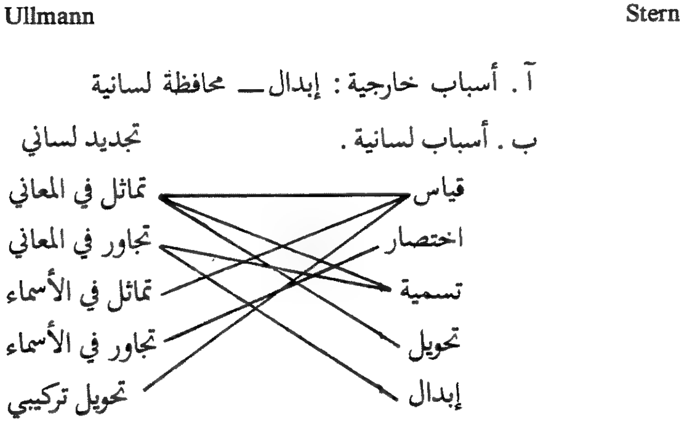

تجد كل استعارات البلاغة القديمة مكانها في هذاالإطار . وهو

يستطيــــع أن يستـــوعب أيضاً التصنيفـــات اللسانيـــة لـ Tests ـــ Wod ، حيث يقترح المجرب فيها ، كما نعرف ، كلمـة ثم يطلب من الشخص أن يجيب بكلمة أخرى . ولقد صنف علماء النفس أجوبة آلاف الأشخاص . إن هذه البحوث تهم اللساني كثيراً ، لأنها تجعل الطبيعة المشتركة للقضية بدهية ، وكذلك الحال فيما يخص النماذج المشتركة وتواترها النسبي واستقرارها بالمقارنـة مع مجموعـات اجتماعية أو بيولوجية مختلفة .

الفصــل الرابــع

تــغيــرات المعنــى
أســبابــهــا

يتغير المعنى لأننا نعطي اسماً عن عمد لمفهوم ما من أجل غايات إدراكية أو تعبيرية. إننا نسمي الأشياء.

ويتغير المعنى لأن إحدى المشتركات الثانوية (معنى سياقي، قيمة تعبيرية، قيمة اجتماعية) تنزلق تدريجياً إلى المعنى الأساسي وتحل محله، فيتطور المعنى.

يكون التغيير في الحالة الأولى فردياً، وشعورياً، ومتقطعاً. بينما يكون في الحالة الثانية جماعياً، وغير شعوري، ومتدرجاً. وهو ينتج في الحالتين عن تغير في بنية المشتركات النفسية المكونة للمعنى ولقيم الكلمة.

يجب أن يكون الرسم البياني السابق ماثلاً في الذهن لحظة البدء في تحليل الأسباب المباشرة للتغيرات.

1. التسـميـة

تسمي اللغة فتضمن استمرار وظيفتها المضاعفة: الإدراكية، والتعبيرية.

هناك، إذن، تسمية إدراكية عندما يستقبل الشيء اسماً. ويكون هذا إما لأن الشيء لم يحمل اسماً من قبل، وإما لأن الاسم يسيء التعبير عن وظيفته.

كما أن هناك تسمية تعبيرية، وذلك عندما نخلق اسماً ونعده لتمييزه الشيء من بعض وجوهه.

ولكننا، من جهة أخرى، عندما نخلق بعض الكلمات فإنما يكون ذلك لأننا نهدف إلى أن نحقق عطاء أفضل للإيصال، بحيث يتصف بالاقتصاد عندما نسقط جزءاً من الكلمات أو نقتضبها ويتصف بالوضوح عندما نحذف أو نبدل بعض الكلمات التي قد تؤدي إلى الغموض.

1. التسـمية الإدراكـية

يعتبر تغيير المعنى إحدى طرق التسمية الإدراكية. فنحن نعطي

لشيء اسماً كان فيما مضى اسماً لشيء آخر ونشركه معه: مشترك تماثلي للأشياء في التشبيه، ومشترك تجاوري في المجاز المرسل والكناية.

والتشبيه واحد من الطرق الشعبية الدائمة للتسمية. فالنباتات، والحيوانات والأدوات تتبادل أسماءها خاصة: فالبحر مملوء بالخيول، والكلاب، وشقائق النعمان، والنجوم. والحديقة مملوءة بفم الذئب، وأقدام القبرة، وكرات الثلج. والورشة مملوءة بالخدم، والماعز، وكعب الظباء، وأذناب السنونو.

والجسم الإنساني مصدر لعدد كبير من التشبيهات الإدراكية: رأس الجسر، قدم الجبل، أسنان المنشار، فم النهر، ذراع الرافعة، عين العقدة.

وتضطلع التشبيهات، من جهة أخرى، بدور كبير في تسمية المفاهيم المجردة المشتركة مع مواد أوقع وقضايا ملموسة: فالفعل (Penser ــ فكر) يأتي من اللاتينية (Pensare ــ وازن). وكذلك كلمة (Esprit ــ روح، حقل، ذهن، طيف، شبح). إنها النفس الروحي (Spiritus). وكذلك كلمة (Comprendro)، إنها إدخال في نظام من العلاقات، أو هي أخذ كلي (Comprehendere)، إلى آخره.

إن التسمية تقوم على العلة في كل الحالات. والمقصود هو تمييز

كائن أو مادة قليلة الإلفة في الأصل، لنشركها مع أخرى معروفة تشبهها : فـ « كعب الظبية » تعني المطرقة ، وذلك لأن لها شكل كعب الظبية ، إلى آخره . ومن هنا ، فإنه من الصعب تمثيل المفاهيم المجردة ، ولذا فإننا نعمد إلى تمثيلها بعمليات ملموسة .

وأما الشيء، في حال المجاز المرسل، فيتلقى الاسم من شيء آخر له اتصال به : الكل والجزء، المنتج والإنتاج ، الأداة والفعل ، إلى آخره . والجدير بالذكر في هذا المقام أن التحويل، هو الآخر أيضاً ، يصدر عن الحذف .

2ـ التسمية التعبيرية

تصف التسمية الإدراكية الشيء، وتنقل إلى حيز الفعل سماته الموضوعية (شكل ، وظيفة، علاقات) التي تعرفه من خلال كينونته . أما التسمية التعبيرية ، فإنها تميز الشيء بالنسبة لمن يتكلم ، وتعبر عن القيمة الشعورية ، والتمني ، والقيمة الجمالية والأخلاقية التي يعمد المتكلم إلى وصفه بها .

ليس المقصود من هذا هو التحقق من هوية الموضوع ، ولكن المقصود هو التعبير عن القيم الواقعة خارج المفهوم والتي تكون المعنى في الوقت نفسه .

إن « ماعز » (النشار) عبارة عن أداة ذات شكل معين . وأيضاً عندما نقول « تيس » فإننا نقصد جانباً معيناً من الشخص وجزءاً من سماته . ولكن يوجد في الثاني مالا يوجد في الأول ، فنحن نحمل هذا الأخير معنى السخرية وعدم التقدير .

إن دراسة هذه القيم التعبيرية ، منظورة لذاتها ، تقود إلى الدراسة الأسلوبية . ولكن علم الدلالة ، على الرغم من هذا ، لا يستطيع تجاهلها لأنها الأساس في تغيرات المعاني التي حصلت بعد تطورها وبعد اختفاء العلل الأولية .

إن التقييم الجمالي والخلقي يعتبر مصدراً رئيساً لهذا النوع من التسمية : فمرة تكون عن طريق التشبيه ، كما في « ملفوفتي » ، « قطتي » ، « بقرة » ، « جمل » ، « وزة » ، « حمار » ، إلى آخره . ومرة أخرى تكون عن طريق صيغ التصغير والتكبير للقيمة الشعورية . أما القضية ، فتبقى دائماً نفسية مشتركة : فالحقارة تستدعي أفكاراً عن الكياسة والوداعة ، أو بالعكس ، فقد تستدعي أفكاراً عن الضعف والمسكنة . والعظمة تستدعي أفكاراً عن القوة ، أو عن الخبث ، أو عن الوحشية ، أو عن القبح .

إن لغريزة المدح والتحقير والسخرية في الذهن الشعبي الدور الكبير في هذه التحويلات .

وإننا نعرف المكان الذي تحتله تشبيهات المدح والذم مثل « رأس » « بسطار » في اللغة العادية والدارجة .

والألفاظ المستعارة من لغات أجنبية غالباً ما تكون ملوثة بكره عام للأجانب . ومن هنا ، فقد جاءت كلمات مثل : « يهودي » ، « يوناني » ، « صيني » . وكلمة Slave مشتقة من Esclave (عبد) . وقد تترك الأشياء أثراً ، كما يحدث غالباً ، يدل على مصدر مجيئها . فكلمة « Habler » لا تعني إلا (تكلم) في الإسبانية . وكذلك « Rosse » لا تعني سوى (حصان) في الألمانية . وعلى العكس من ذلك ، فإن بعض طرق التظرف Snobisme تعطي قيمة لبعض الألفاظ كما في الفرنسية : Surprise, Partie, Five o'clock, Lunch .

3 . القوة الانفعالية الباطنية

تؤكد الصيغ التعبيرية ، بعد أن تبين دور الانفعال البدهي ، التحليل الوظيفي للمعنى . فللغة وظيفتان : إنها أداة للإيصال الإدراكي ، وهي وساطة للتعبير أيضاً . ولقد كشف كل علماء الدلالة عن هذه الوظيفة : Stern, Odgen, Erdmann, Bréal, Wundt, Ullmann, F.Paulhan, Delacroix, Esnault, Bally, Richards إلى آخره .

نرى في كل انفعال عنيف كالغضب ، والحب ، والحماسة ، أن الكلمات غير المتوقعة والخيالات الطريفة تصدر عفوياً . إن الانفعال والإلهام مصدران عظيمان للخلق الأسلوبي .

إن دراسة زلات اللسان عند فرويد والاختبارات الشفوية للتحليل النفسي ، تؤكد السمة الباطنية للانفعال في اللغة . فالكلمات لا تعبر فقط عن انفعالاتنا ، ولكنها تعبر أيضاً عن استحواذات منتشرة ، غير ثابتة ، وفي أغلب الأحيان غير واعية ، بل ومكبوتة بالموانع الفردية والاجتماعية .

ويرى H.Sperber في هذه القوة الانفعالية الباطنية واحداً من الأسباب الرئيسة لتغير المعنى .

في كل مجتمع موضوعات متميزة ، و « حقول للتفكير » ، تعود للوسط الاجتماعي وإلى نشاطه ، وإلى الظروف . وهذه كلها تكون حاضرة في الخطة الخلفية للوعي الجماعي وتلون أفكاره .

4 . تورية ومحظورات

الكلمة مجموعة من المشتركات المعقدة . فالزهري (Le vérole) لا يدل على نوع معين من الأمراض ، ولكنه يستدعي مجموع ظروف الاتصال به عموماً ، كما يستدعي مجموع الأحكام المحقرة والمهينة التي

يطلقها الرأي العام. ولهذا السبب نبحث له عن بديل فنسميه: «السوء الإيطالي»، أو «العطب». ومن شأن هذه الكلمات أن تحيد (إلى زمن) وقع المشترك الكريه.

وكذلك الحال في بعض المواقف، حيث تمنعنا العفة من استخدام الصور الفاحشة والمقرفة. وإن بعض مذاهب الأدب المسماة بـ Les Précieuses امتنعت حتى عن استخدام ألفاظ مثل: «أدخل» و «وفق». حتى انكلترا في عصر فيكتوريا لم تكن أقل حساسية. أما على العكس من ذلك، وبشكل قريب منا، ثمة فرقة موسيقية أميركية مكونة من ستة موسيقيين قد ذيع صيتها باسم «Quintet» و «Sextet»، الشيء الذي يظهر موحياً جداً.

وفي بيت حكم على صاحبه بالشنق، نتجنب تأدباً بعض التداعيات المكدرة. إننا نتكلم بالإشارة، ونسمي الميت بالمتوفي أو الفقيد.

إن هذه البدائل المسماة تورية تعتمد على محاكمة نفسية مشتركة، ولكنها ذات طبيعة خاصة. إذ المقصود هنا ليس هو بث العلة، ولكنه على العكس من ذلك، أي أنه يستهدف كسر المشترك.

وتذهب إحدى الطرق المعروفة جداً، إلى استبدال الكلمة ببديل عنها خالٍ من أي قيمة تعبيرية، وله صفة العلمية. ولذا فإنه

لا يقال « On sue » ولكن « On Transpire » (تعرّق) . وكذلك الحال بالنسبة لكلمات أخرى إذ يقال « On Urine ــ بال « On éructe ــ تجشأ » ، إلى آخره .

تستند التورية على كثير من تغيرات المعنى . فنحن نقـول Le Petit Coin ، Le cabinet أو D'aisance (في العربية نقول : بيت الراحة ، المرحاض ، بيت الخلاء) . وإننا نشرك بهذا ، عن طريق الكناية والمجاز المرسل ، بين الشيء ، المحظور والأشيـاء المجاورة : (Le garde robe ــ خزانة الملابس) ، (المغسلة) ، (الهاتف) . وعلى العكس من ذلك ، إننا نادراً ما نستخدم التشبيه الذي يؤكد العلة . ومع هذا ، فإننا لا نرى في كلمات أجنبية تقوم على التشبيه أي أثر لها : « Water ــ Closet » .

يمكننا أن نقول أخيراً ، إن هذه الصور المختلفة تتآلـف مع الحذف ، والاختـصار ، والبتـر فالتعـبير (Lieux d'aisance ــ مكـان الراحـة) يصبـح (Lieux) ، والتعـبير (Water ــ Closet) يصبـح (Vatères) و (W ــ C) ، وكذلك (Vécés) . وهكذا نبدع دائمـاً كلمات جديدة نحيد بها المشترك الذي يعود للتشكل مجدداً ودون انقطاع .

إن أصل المحظورات مختلف جداً ، إذ ليس المقصود هو المشترك فقط ، وإنما المقصود هو تطابق الاسم مع الشيء : إن اسم الشيطان هو

الشيطان نفسه. ولذا نرى أن المحظورات اللسانية تمنع، في اللغات البدائية، كل الأسماء المقدسة والخطيرة، ذلك لأن هذه اللغات تقوم على أشكال سابقة لمنطق التفكير. كما أن المحظورات قد خلفت آثاراً كثيرة في لغاتنا المعاصرة. ففي بعض الأرياف، وحتى يومنا هذا، لا يلفظ اسم الثعلب، ولا الصقر. فالحيوان بهذا المعنى إنما يكون ضمير الغائب «هو»، أو اسم الإشارة «ذا»: «أخذ ثلاث دجاجات هذه الليلة».

وتستعمل طريقة أخرى لكي يهدأ الذهن أو الحيوان الخطر، وذلك بالإشارة إليه بأسماء عاطفية منتحلة. ومثال ذلك حين نقول: (Belette ــ الصغيرة الجميلة)، أو كما في الإيطالية (La donnola ــ السيدة الصغيرة). فكل هذه أشكال من التلميح لها مايماثلها في الألمانية، والإنكليزية، والدنيماركية، والإسبانية، والبرتغالية، إلى آخره.

5. إقتصـــاد الكـــلام

إن الاقتصاد في الكلام مرتبط بشرط الجهد الأقل. ولذا، فهو يعتبر مصدراً آخر من مصادر تغير المعنى.

إننا نحذف من الخطاب كل شيء لا يعتبر ضرورياً له. وإن الحذف طريقة شائعة بالنسبة لهذه القضية. فجملة مثل: «مدينة

العاصمة الفرنسية » تصبح « العاصمة الفرنسية » ، ثم تصبح بعد ذلك « العاصمة » فقط .

ويرتبط الحذف بالسياق . فكلمة « العاصمة » تعني باريس ، وذلك ضمن معرفتنا بأن المقصود إنما هو المدينة ، وعلى وجه التحديد مدينة فرنسية . ويتبين من هذا أن المراد هنا ، إذن ، هو أحد معاني الكلمة . ولكن التحديد يصبح غير ضروري لأن المعنى قائم ضمن الجملة .

وقد يأخذ الاقتصاد شكلاً آخر ، إذ يستطيع أن يصيب الكلمات نفسها ، وفي هذه الحالة يكون البتر . ومثال ذلك (Véhicule automobile ـــ عربة نقل متحركة آلية أو سيارة) إننا ننتقل من هذا التعبير إلى تعبير أقل فنقول : (Automobile) ، ثم ننتقل إلى تعبير آخر أقل منه أيضاً فنقول : (Auto) . وكذلك الحال بالنسبة لتعبيرات مثل : (Cinématographe ـــ الصور المتحركة) حيث تصبح (Cinéma) ثم تنتهي إلى أن تصير (Ciné) .

ولقد ساعد تطور اللغات التقنية على وجود اختصارات مثل : « Unesco » ، « Uno » ، « Shape » ، والتي لم يعد أحد يعرف أصلها بالتحديد لأنها في الواقع قد أخذت قيمة الاسم فعلاً . وقد ذهبت اللغة

الإنكليزية في هذا النوع من التسمية مذهباً بعيداً، فأخذت تسمي الأشخاص بحروف أسمائهم الأولى.

كما يوجد الحذف، والبتر، والاختصار في لغات بعض الناس الذين يحددون السياق: فكلمة « Laba » لا يمكن أن تكون إلا بين أناس يترددون على (المختبر Laboratoire). ثم إن المعنى الاجتماعي السياقي حين يتطور ويخرج من حدود بعض الناس، يستطيع أن يحدث تغيراً في المعنى الأساس.

6. الوضوح والإيصال ــ الصراعات الجناسية

لقد رأينا، في اللغة، أن المفهوم الواحد يستطيع أن يتخذ أسماء عدة (مترادفات)، كما رأينا أن الاسم الواحد يعني مفاهيم عدة (جناس). وإن الإيصال يتلاءم مع تعدد المعاني، لأن الكلمة في الخطاب توضع دائماً ضمن سياق يحدد معناها. ولذا، فإنه ليس هناك احتمال للخلط بين جمل مثل: « Sonner du cor ــ نقر في البوق » و « Souffrir d'un cor ــ تألم من دملة »، أو بين « Un verre de vin ــ كأس من الخمر » و « Ver de terre ــ دودة الطين » ولا بين « Le corps humain ــ الجسم الإنساني »

و « Un corps d'armée ــ فيلق عسكري » و « Le corps du délit ــ جسم الجريمة ».

ومع ذلك، فإنه يمكن لتحولات التطور الصوتي والدلالي أن تولد أشكالاً تستطيع معانيها أن تختلط ضمن السياق الواحد. حينئذ، سنرى قيام صراع وصدام جناسي. غير أن هذه الحالة تذهب إلى إعطاء تسمية جديدة لأحد المتصارعين.

ولقد وضح Gilliéron أهمية هذه الظاهرة في دراسة تقليدية، وبين كيف أن التطور الصوتي في القاسقونية قد أحدث تطوراً في جناس الاسم للقطة (Cattus>gat) وللديك (Gallus>gat)، ثم أوضح كيف أن هذا الأخير قد حذف نتيجة تشكل تعبيري «Digey»، فسمي بـ (Le vicaire ـ الكاهن). كما بين أيضاً كيف ظهر المكر الريفي في عقد مقارنة بين (قسيس) و (ديك) قائم بين دجاجاته.

لا يستطيع «القط» و «الديك» استحواذ الاسم نفسه، أي (Gat) لأن ذلك سيؤدي إلى التباس سياقي في جمل مثل: «خنق الكلب الـ gat» و «أين ذهب الـ gat»، إلى آخره. ولذا كان لا بد لأحدهما أن يختفي. وكما يقال في قاسقونيا على سبيل المداعبة: قتل القط الديك.

مما لا ريب فيه، أن هذه الصراعات الجناسية ـ ودون أن يكون البرهان في هذا سهلاً ـ تؤدي إلى تغيرات عديدة في المعنى. فالفرنسية القديمة تحتوي مثلاً على الأفعال: «Amer ـ أحب» و

« Esmer ــــ وقر » . ولقد أصابها التطور المورفولوجي (الصيغي) والصوتي فمزجها ، فظهرت في شكل واحد « Aimer » و « E(s)mer » . ولكن التوقير يعتبر أحد عناصر الحب ، ولذا كان على التماثل المضاعف أن يقود بالضرورة إلى صراع جناسي ، تزيله في ذاوته طريقة في الأسلوب عزيزة على القرون الوسطى ، حيث تضع الكلمتين دوماً في تماس ضمن التعابير الأدبية المكرورة : « Esme (يوقر) و (Il)ame (يحب) » . ولقد أخفى الجناس « E(s)mer » لصالح صنوه البارع « Estimer ــــ وقر » .

ونأتي بمثل آخر من اللاتينية : (Mulger ــــ حلب) و (Mordre ــــ طحن) . وبما أن الفعلين انتهيا إلى شكل واحد هو « Moudre » ، فقد كان لا بد لأحد المعنيين أن يأخذ شكلاً جديداً وهو « Traire ــــ حلب » .

وقد أدى الصدام بين كلمات مثل : « Les héros ــــ الأبطال » و « Les zéros ــــ الأصفار » إلى بلع الـ (h) ، ولكننا مع ذلك ظللنا نقول : « Les (h)éroines » و « L'héroisme » .

إن Gilliéron هو الذي كشف أيضاً عن دور الفائدة الصوتية في تغيرات المعنى . فالاسم البدائي للنحلة قد اختصر من اللاتينية « Apem » إلى « é » . وقد أوشك هذا الشكل الذي ينقصه الجسد أن يزول من سلسلة الكلام ، فاستعيض عنه تارة بالبروفانسال « Abeille ــــ

نحلة » ، وتارة أخرى بصيغة التصغير « Avẹtto » ، كما استعيض عنه تارة ثالثة بتشبيه من نوع « Mouche à miel ــ ذبابة عسل » و « Mouchette ــ ذبيبة » .

2 . تطـور المعنـى

إن التسمية عن طريق تحويل المعنى عبارة عن فعل واع من المتكلمين الذين يربطون مفهوماً ما بمعنى ما . وذلك بحرية منهم ولغايات محددة . وأما ما تبقى ، فيعتبر انزلاقاً في المعنى لا يلبث أن يختفي داخل اللغة . ولهذا الأمر أسباب عديدة :

1 . تطـور المرجـع

إن كلمة « Fusil ــ بندقية » قد أخذت اسمها من الحجر الذي يستخدم في إعطاء الشرر . ولكننا ما زلنا كذلك إلى اليوم حيث نسمي أسلحة تستخدم الكبسولة ، والنابض ، والهواء المضغوط . لقد تغير الشيء ولكنه ظل محتفظاً باسمه .

وإن التغير التقني ، والتشريعي ، وتغير الطبائع يؤدي إلى تغيرات في المعنى لا تحصى ، أو على كل حال ، إلى تعديل في العلاقات بين

الدال ومضمونه المفهومي. ولكننا نتساءل عما إذا كان هناك أي تغير دقيق في المعنى، باعتبار أن جوهر البندقية في وظيفتها التي لا زالت كما هي لم تتغير. وتوجد هنا نتيجة من نتائج قسرية الإشارة التي تعتبر محصلة لعدم وضوح الحافز الاشتقاقي. فعندما يختفي المشترك بين السلاح والحجر فإن البندقية لا تتعدى كونها سلاحاً نارياً، ولهِ شكل معين. ويمكن لنا أن نتكلم عن بندقية ضغط تماماً كما نضع فعلاً مطاطياً لفرس، إلى آخره.

تتوزع انزياحات المعنى الناتجة عن التطور على أنواع ثلاثة:

آ. تغير في طبيعة المرجع: وهذه حال معظم الإنتاج التقني: فالبندقية لم تعد سلاحاً حجرياً، والريشة لم تعد ريشة طير، والورقة لم تعد ورقة رق بردى. وكذلك الحال بالنسبة للملكية، والزواج، ومجلس النواب. إنها جميعاً لم تعد ما كانت عليه في السابق.

ب. تغير في المعرفة التي نملكها عن المرجع: فلقد كشف العلم لنا عن وجوه جديدة للواقع، وعندما لا يخلق مصطلحات جديدة، فإن مضامين الكلمات تجد نفسها قد عدلت. فالكهرباء اليوم ليست هي كهرباء « Franklin »، والذرة ليست ذرة « Pythagore » ولا ذرة « Berthelot ». وكذلك فإننا مازلنا نقول إن الشمس تنام وتستيقظ.

ج . تغير في موقفنا الذاتي إزاء المرجع : فالفكرة التي نأخذها عن الإيصال وعن المعرفة ، وعن الطفولة المنحرفة ، وعن الطلاق ، إلى آخره ، قد تغيرت مع تغيرها . فلقد توالت الظروف ، والتجربة ، والدعاية . وهذا التغير لا يخص القيم العاطفية فقط ، ولكن يخص أيضاً المضمون المفهومي للكلمة .

وهذا هام بشكل خاص في أعلى مستويات التجريد ، حيث نرى أن المفاهيم التي فقدت كل اتصال مع جوهرها قد أصبحت في تردد مستمر .

إن النحيب على قيم كلمات مثل : ديموقراطية ، وحرية ، قد أصبح مكاناً عاماً يلتقي فيه النقد الدلالي . وفي الواقع ، من جيل إلى جيل ، ومن مجموعة إلى أخرى ، وخاصة من بلد إلى آخر ، نرى أن المقصود يكمن في كلمات مختلفة ، وأن المترجمين قد وجدوا من واجبهم أن يحافظوا عليها في اللغة الأصلية ، وذلك كما في الكلمات : « Moujik ، و « Isba » و « Home » ، أو كما في « Christmas cak » .

2 . إبهام الحافز الإشتقاقي

لقد رأينا فيما سلف كيف أن الصورة تختفي تاركة وراءها كلمة جديدة تحل محلها . إن هذه العملية الدلالية للقيم الأسلوبية بمثابة

المصدر الهام للتطور الدلالي . وبطريقة مماثلة نجد أن كلمة « Gêner » وهي مشتقة من « Géhenne (جهنم) = Arture (تعذيب) ، ما تزال قوية عند راسين ، ورويداً رويداً نأخذ معناها الحالي . وتنطبق نفس طريقة التطور هذه على كلمة مثل : « Formidable ـــ عظيم ، رهيب » . وهي من ناحية اشتقاقية تماثل « Redoutable ـــ مخيف رهيب » .

3 . التنضـــيد الاجتمـــاعي

إن ما نسميه (اللغة) إنما يتكون من حالات لغوية . فهناك لغات يميزها النبر ، أو النوع ، أو الوسط .

وتمثل لغات المجموعات الاجتماعية بصورة خاصة سمات مميزة تعود إلى الثقافة ، وطرق العيش ، كما تعود بصورة خاصة إلى النشاط الإقتصادي والتقني الذي تمارسه المجموعة . وهذا ما يدل ، حسب تعبير Meillet ، على وجود تنضيد اجتماعي للغة .

إن بعض الكلمات التي تتضمن معنى عاماً إنما هي ملك مشاع ومشترك بين كل أعضاء الجماعة . وإن لبعض الكلمات الأخرى معاني سياقية متعددة ، وكل واحد من هذه المعاني يكون معنى ما ، له الحظوة عند مختلف الجماعات . وهناك أيضاً كلمات تنتسب فقط إلى مجموعة اجتماعية معينة . ويكون لهذه الكلمات معنى خاص كما نرى ذلك في كلمات التقنية بصورة عامة .

وعندما تمر الكلمة من مجموعة إلى أخرى يتغير معناها . وتكون هذه المقتبسات الاجتماعية حتى عند Meillet« المبدأ الجوهري لتغير المعنى » . وهذا يعني أن الحركة مضاعفة . فمن جهة أولى ، نرى أن كلمة خاصة قد تبناها كل أعضاء المجموعة ، ومن جهة أخرى ، نرى أن كلمة عامة ، أي على العكس من الأولى ، قد تركت لمجموعة معينة . وهذا يؤدي إلى بلورة المعنى السياقي الخاص الذي تأخذه الكلمة ضمن المجموعة .

ولقد كان الفعل « Arriver ـــ وصل » في الأصل مصطلحاً يخص الملاحة ويعني بلغ الشاطيء . ثم عم وشاع بعد ذلك ، وصاحبته قيمة أسلوبية أعطته معنى الوصول إلى نقطة ما ، وليس إلى الشاطىء وحسب . ونلاحظ أن التعميم إنما هو توسيع في الفلك الاجتماعي للكلمة ويتماثل غالباً مع امتداد المعنى ، أي مع توسيع سطح مرجعيته . وتنطبق الملاحظة نفسها على التخصيص ، حيث يؤدي إلى التضييق .

إن سلسلة الكلمات : « Pondre ـــ باض » ، « Couver ـــ حضن » ، « Muer ـــ نسل » ، « Traire ـــ حلب » ، تعتبر مثلاً مألوفاً للاختصاص الاجتماعي . فهذه الكلمات ، من ناحية اشتقاقية ، تتضمن المعنى العام لـ « Poser ـــ وضع » ، « نام على » ، « غير » ، « سحب » ثم جاء المعنى السياقي الممثل في : « وضع بيضة » ، « سحب

أو شد ضرع البقرة » ، إلى آخره . وقد كان لهذا المعنى في الريف ، المقام المميز ، فحذف المعنى الأساسي .

4 . العـــدوى

عندما تكون كلمتان في حالة تماس ، فإن واحدة ستؤثر في الأخرى . وهذا ما يسمى بالعدوى .

وقد تكون العدوى ، في بعض الأحيان ، من أصل نحوي ، كأن تلتقي كلمتان في بعض البنى .

إذا نظرنا إلى كلمات مثل : « Rien » ، « Pas » ، « Personne » فسنرى أنها لا تفيد النفي اشتقاقياً . فكلمـة « Personne » تعبر عن شخص . ويقال أيضاً : « شخص من معارفي » . وكلمة « Rien » تعبر عن شيء . ويقال بالفرنسية القديمة : « La rien (الشيء) الذي أحب أكثر مما في الدنيا » . ولكن حين تكون هذه الكلمة في جمل فإنها في معظم الأحيان تفيد النفي . وقد ذهبت القواعد إلى منع استخدامها دون (ne ـــ لا) ، إلا أن اللغة الشعبية تقول : « ليس لديّ شيء أفعله » و « لا أعرف » ، إلى آخره .

ويمكن للعدوى أن تكون من أصل صوتي . وفي هذه الحالة يقوم تقاطع بين شكلين كما في الجناس .

وتستطيع بعض الكلمات أن تتسلل إلى اللغة، وخاصة في مجتمعات ازدواجية اللغة، حيث الاختلاط بين لغتين يكون بسهولة أكبر. فإذا أخذنا كلمة مثل «Haut ــ عالٍ»، فسنرى أنها ولدت نتيجة تقاطع بين اللاتينية «Altum» والجرمانية «Hach» وكذلك الحال بالنسبة للفعل «Craindre ــ خشي» حيث يكون التقاطع بين اللاتينية «Tremere» والسلتية «Krem».

كما يمكن للعدوى أن تكون، دلالية، ومثال ذلك ما نراه بين الفعل «Recouvrir ــ غطى» والفعل «Recouvrer ــ استرجع، استرد»، وغالباً ما يخلط بين المعنيين.

إن ازدواجية اللغة تيسر العدوى الدلالية بصورة خاصة، وذلك تحت الشكل المسمى بالنسخ. ونستدل على هذا بعدد غير قليل من الكلمات مما يرد عن الإنكليزية والأمريكية. ويدخل اللغة حالياً عن طريق الترجمة الصحفية السريعة، وعن طريق الإذاعة، والروايات الشعبية. وإن هؤلاء السياح يمتلكون الحق، مع مرور الزمن، في القول والرواية. فالفعل «Réaliser ــ حقق» أصابته عدوى الإنكليزية «Realize» وأصبح الآن مقبولاً، وصرنا نقول: «نتحقق من الوضع» و «القيادة العامة تتحقق من نيات العدو».

وإنه لمن الصعوبة بمكان أن نكشف النقاب عن العدوى الدلالية

ولا سيما عندما لا تهدم الشكل أو المعنى الأساسي للكلمات. ولكن يمكن أن يقال إنها تقوم بدور كبير في حياة اللغة، وذلك بشكل خفي. ونستنتج من هذا أنه يمكن تحديد نتائج المشتركات لنموذج مثل: «Funébres ــ مأتمي، محزن، كئيب»، و «Ténèbres ــ ظلمات ودياجير»، وكذلك بالنسبة لـ «Amour ــ حب»، و «Toujours ــ دائم». كما يمكن أن يحدد أثر «Avarie ــ تلف، ضرر» على المعنى في «Avatare ــ تناسخ، تحول، مصيبة» وكذلك يمكن أن تحدد القيمة في «Grenouille ــ ضفدعة» التي أصابتها العدوى بسبب (Son suffixe)[1] اللاحقة في مقابل الشعرية القديمة الموجودة في «Rane».

هناك كثير من حالات العدوى المستترة والخفية. ولكنها مع الإستمرار ستؤثر حتماً على القيمة في الكلمة، وفي بعض الأحيان على معناها.

5. الإشتقاق الشعبي

إن الاشتقاق الشعبي أو الاشتقاق المغلوط (يقال أيضاً الانحراف الجناسي) شكل من أشكال العدوى. وهو اختلاط يحصل في ذهن أناس من ذوي الثقافة الضحلة فينسبون إلى الكلمة، بسبب

(1) Suffixe ــ لاحقة. وهي ما يضاف من الحروف في آخر الكلمة.

هذا، أصلاً أو تشكيلاً تخيلياً. فتتغير قيمتها تبعاً لهذا، مما يؤدي في بعض الأحيان، إلى تغير فعلي للمعنى.

وعلى هذا الأساس فإن العبارة: «Jour ouvrable» تعني: «اليوم الذي يفتح الحانوت فيه أو المعمل». وهناك عبارات أخرى مثل: «Souffreteux»، وهي كلمة من مصدر لاتيني «Souffrancta ــ مقطوع». وقد ربطت من غير مسوغ بـ «Souffrir ــ تألم»، إلى آخره.

هنا أيضاً، نجد أن العمليات التأويلية إنما يسرها النسخ وازدواجية اللغة.

6. تصنيف الأسباب

إن الأسباب المتعددة والمعقدة التي تولد تغيرات المعنى تجعل من التصنيف حاجة ملحة. ولقد وجد عدد منها. ولكن تصنيف Meillet الذي صححه Nyrop يعتبر أكثرها بساطة وتماسكاً:

آ. سبب تاريخي، أو تغيرات في العلوم والتقنيات، والشرائع، والعادات. وإن كل هذه تؤدي إلى تغيرات في الأشياء دون إحداث تغيير في الاسم، وبالتالي فإنها لا تمس نظام اللغة إلا بشكل غير مباشر.

ب . أسباب لسانية ، أو تغيرات أحدثتها أسباب صوتية ، صيغية ، أو نحوية : العدوى ، الاشتقاق الشعبي ، الصراع الجناسي ، الحذف .

ج . أسباب إجتماعية « النسخ الاجتماعي » ، وتغيرات في السطح الاجتماعي للكلمة وهذا يؤدي إلى تغير في السطح الدلالي لها (تضييق أو اتساع) .

د . أسباب نفسية ، بحث عن التعبيرية ، محظورات وتوريات ، قوة محفزة . (لا توجد هذه المجموعة في تصنيف Meillet) .

وأريد من جهتي ، أن أضيف إلى هذا التصنيف تصنيفات (الأسباب الخارجية) التي نرى مصدرها في الأشياء المسماة ، وفي النظرة التي ينظرها المتكلمون ، وفي (الأسباب الداخلية) التي تقوم على الأشكال اللسانية وعلى علاقاتها ضمن النظام اللغوي .

يجب أن لا يحجب هذا التصنيف ببساطته العدد الهائل في تغيرات المعنى القائمة من عدد النماذج الشكلية ، والقائمة في أسباب تولدها ، بالإضافة إلى تعقيداتها العميقة وذلك لأن تغير معنى ما ، نادراً ما يكون بسيطاً . فكلمة « Dada » مثلاً استطاعت أن تظهر كتشبيه تعبيري ، وظلت كذلك إلى يوم جاء فيه الاشتقاق فعثر على أثر

استعمالها الأول في ترجمة عن الإنكليزية وجد النسخ فيها. وإذا نظرنا أيضاً إلى الفعل: « Traire حلبَ »، فسنرى أن تطوره قد حصل نتيجة للتخصص الإجتماعي في سلسلة من الأفعال مثل: « Pondre ــ باض »، Couver ــ حضن». ولكن الفعل « Traire » كان، فيما سبق، بديلاً تشبيهياً للفعل « Moudre ــ طحن» والداخل في صراع جناسي.

إن أغلب تغيرات المعنى أنتجتها طرق متعددة، يوضحها المثل الأخير الذي سنضربه. إن كلمة « Le foie ــ الكبد » كانت تعني في اللاتينية « Jecur »، ولكن كان في روما طعام، شعبي بصورة خاصة، مصنوع من الكبد والتين، وكان يسمى: « Le jecur ficatum ». ثم حذفت بعد ذلك « Fictum »، كما حذفت أيضاً كلمتان من أمثالها في تعابير مثل: « Pommes ae terre frites ــ بطاطا مقلية »« وصارت تلفظ فقط كلمة « Frites ». وإن كلمة « Fictum » قد صارت في اللاتينية الشعبية تشير إلى كل أنواع الكبد، وإلى العضو المسمى (كبد) بشكل عام. وكذلك الحال بالنسبة للتعبيرات الأخرى، فقد يصبح مباحاً أن نقول: « Frites bouillie ــ المقليات المسلوقة » أو « La récolte des frites est bonne cette anné ــ محصول المقلي جيد هذه السنة »، وهذا تطور ممكن جداً. وأما بالنسبة للفرنسية، فإن الشرح

المتعلق بكلمة « Foie » يتعقد، وذلك لأن هذا الشرح يفترض وجود شكل ممثل في « Fictum » مصحوبة بـ (أ) قصيرة. بينما نجد أن اللاتينية الكلاسيكية تحتوي على (أ) طويلة. وهذا ما يحدث تغييراً صوتياً شاذاً وغير مفسر.

إننا نضع المشكلة في حسابنا، وما أن تنقص حلقة من الحلقات حتى نركز انتباهنا على القيمة الافتراضية للمخاطر القائمة في مثل هذا التحليل.

والسؤال الذي نطرحه هو: هل من الممكن، ضمن هذه الشروط، أن نقنن قوانين دلالية؟ إننا نشك، ولقد أثارت هذه القضية كثيراً من الجدل.

وبما أن العلاقة اصطلاحية بالدرجة الأولى، فإنه لن يكون للقانون فيها مكان. ومع ذلك، فقد نرى، على الأكثر، بعض القواعد السيميولوجية. ولكن الكلمات، اشتقاقياً، تحمل عللها، وإن تطورها السابق يصدر دائماً عن أسباب يمكن تعريفها والتحقق من هويتها. وإن خلق الكلمة وتطورها محددان، وهذا ما يستدعي مفهوم القانون.

ولكن هذا التحديد، كما سبق أن رأينا، يبقى حراً، وإذا لم يكن من الممكن التكهن بميلاد شخص أو بمصيره، فإنه ليس من الممكن أيضاً التكهن بميلاد كلمة أو بمصيرها.

يمكن على الأكثر أن نستخرج ــ كما في علم الاجتماع ــ بعض الاتجاهات : كزوال العلة واستبعاد الصراعات الجناسية ، وتشبيه المفاهيم المجردة ، واتساع أو تقلص الموضوعات النفسية الإجتماعية المميزة ، والأخذ بمبدأ الجهد الأقل ، إلى آخره . وهذه كلها موجودة في كل العصور ، وفي كل اللغات ، ولكن لا يمكن التحقق منها إلا ضمن المجموع ، لأنها تستطيع أن تشكل تفسيراً بعدياً لكل حالة خاصة ، ولأنها تكون ، فعلاً ، سبب الظاهرة . ولكنها بالرغم من ذلك تبقى سبباً غير ضروري . ولذا فهي عبارة عن اتجاهات إحصائية ، لا تمتلك صفة القوانين .

الفصـــل الخـامـس

من زاويـــة البنيـــة

1. اللغــة والبنيـــة

لقد وقفنا حتى الآن على علاقات المفهوم والشكل الدال في مستوى الكلمة المعزولة. ولقد تم هذا الإجراء كما لو كان جرداً لأثاث أو معاينة لجدول من القسمة. ولكن اللغة تكون كلاً واحداً. إنها نظام، وقيمة كل عنصر لا تتعلق به بسبب طبيعته أو شكله الخاص ولكن بسبب مكانه وعلاقاته ضمن المجموع.

يتكون الجسم الإنساني، مثلاً، من مجموعة من الخلايا. وهذه الخلايا تشكل النسيج المكوّن للأعضاء (قلب، كبد، إلى آخره). وهي تجتمع بدورها ضمن نسق (دوراني، تنفسي، إلى آخره). ويشكل الكل بنى متجانسة تكون فيها كل العناصر ومجموعات العناصر متعلقة ببعضها بعضاً، مثلما يتعلق شكل النسق الدوراني ووظيفته مثلاً بعناصر النسق التنفسي، إلى آخره.

إن التدليل على أن اللغة نظام يعتبر أهم ابتكار وأكبر ثورة لسانية قام بها سوسير . ولقد أدت هذه الرؤية إلى دراسة بنيوية لنسق الأصوات أو الصيغة ، ونفذت أكثر فأكثر إلى النحو ، وفتحت مؤخراً آفاقاً جديدة أمام علم الدلالة .

تشكل القواميس القاعدية من جهة ، والقواميس الايديولوجية من جهة أخرى ، وجود البنى الشكلية والمفهومية في داخل عالم المفردات . ويُظهر تحليل المعنى في الوقت نفسه أن الخلق يقع على واحد من المشتركات بين الكلمات ، سواء كان هذا الخلق صيغياً (متفرعاً ومركباً) ، أو كان دلالياً (اشتقاقاً شعبياً ، عدوى ، تغيراً في المعنى) .

لقد بين سوسير في كتابه (الدروس) أن الكلمات تشكل نسقاً يأخذ كل عنصر فيه قيمته ومكانه بالنظر إلى العناصر الأخرى : فالكلمة الفرنسية « Mouton — خروف » مثلاً ليس لها نفس القيمة التي للكلمة الإنكليزية « Sheep » ، وذلك لأنها تدل في الوقت نفسه على مفهومات تتضمنها الكلمة « Sheep » ، أي (الحيوان الحي) ، و « Mouton » ، أي (لحم الجزار) .

كما ركز سوسير الانتباه أيضاً في كتابه على لا نهائية المفردات حيث تعتبر كل كلمة مركزاً لكوكبة من المشتركات .

فإذا عدنا إلى الخط البياني في كتاب سوسير (ص 175) الموضوع في الأسفل، فسنجد أن الكلمة (تعليم) ترتبط معنى وشكلاً بـ (علم، نعلم، إلى آخره).

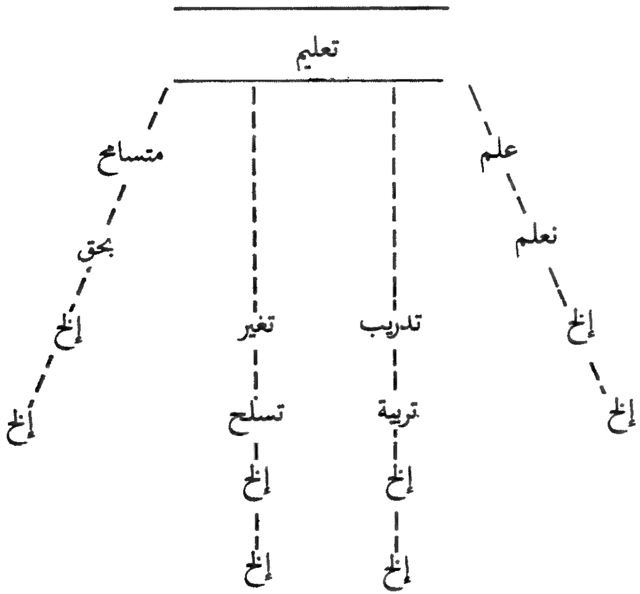

وهي ترتبط معنى بـ (تدريب، وتربية)، وترتبط بشكلها الصوتي بـ (متسامح، بحق).

لم يملك سوسير الوقت، كي يطور هذا المفهوم، أي (شبكة

المشتركات). ومع ذلك، فقد كانت الفكرة تلوح في الأفق. فدراسة التشبيهات مثلاً تؤكد ضمنياً طرح مفهوم البنية، ومنذ أن وجدت هذه الدراسة كانت التشبيهات تجمع بحسب أصولها (تشبيهات مستعارة من مفردات الصيد، ومن جسم الإنسان، ومن عناصر الطبيعة، إلى آخره)، أو تجمع بما يتناسب مع مقاصدها (تشبيهات تميز الحب، أو فكرة القوة، أو المال، إلى آخره).

ولقد لاحظ R.M.Meyer منذ /1910/ أن كل مصطلح يشتق قيمته ضمن جدول الرتب العسكرية من مكانه داخل مجموعة المصطلحات التي تكون نسقاً دلالياً.

وأكد L. Weisgerber، من جانبه، التداخل القائم بين مفاهيمنا وكلماتنا. فقد أظهر، مثلاً، أن أسماء الألوان تشكل نسقاً قسرياً. كما بين أننا نستطيع أن نقسم بشكل آخر الطيف، وأن سلم القدماء كان مختلفاً عن سلمنا ويعكس طريقة مختلفة عن طريقتنا في تقسيم الواقع. وقد وجه الدراسة بهذا إلى ميادين لسانية كما عرفها Trier فيما بعد.

2. علة داخلية وعلة خارجية

تستطيع طرق التشكيل الفعلي، كما قلنا فيما سلف، أن تكون

داخلية أو أن تكون خارجية. وتشكل تغيرات المعنى، جوهرياً، علة داخلية. وهذا هو ما سيكون موضوع الصفحات القادمة بالإضافة إلى عدد من التحفظات. ولكن العلة الكامنة خلف المعنى، إنما هي قياس بين شيئين مؤسسين في الواقع وخارج اللغة. ومع ذلك، فإن عدداً من تغيرات المعنى هذه تجد مصدرها في اللغة (صراع جناسي، عدوى، اشتقاق مغلوط) ولكن هذا الأمر لا يعتبر بالنسبة لعلم الدلالة التقليدي إلا حوادث عرضية أو هامشية. أما الاستعارات الأساسية (تشبيه، مجاز مرسل) فمعرّفة ومؤسسة من الخارج. ويبقى علم الدلالة، بالنسبة لـ Bréal وأتباعه، متجهاً نحو السمات المنطقية، النفسية والتاريخية للظواهر أكثر من اتجاهها نحو عللها اللسانية.

ولا تستطيع البنيوية إلا أن تنفذ هذه الرؤية. ولقد فعلت هذا في كتابي الاشتقاق، حيث حاولت أن أبين: من جهة أولى، أن الجناس بأشكاله المتعددة أكثر ما يكون بعداً عن الحادث العرضي، ويشكل ظاهرة عامة. وبينت من جهة ثانية، أن العلة الخارجية، بدهية كانت وضرورية، تبقى صفة لسانية ناقصة لا تفي بسد الحاجة. وأضرب على هذا مثلاً: لقد سُمِّيت (La bécasse) دجاجة الأرض بهذا الاسم لأن منقارها طويل (صفة خارجية)، ولكن لأنه يوجد أيضاً في اللغة نموذج لطريقة في التسمية تسمح بتعيين الحيوان انطلاقاً من خواصه المادية.

ونستنتج من هذا أنه ما كان بدهياً خارجياً يجب أن يكون متضمناً دائماً في الصفات الداخلية .

فيما يخص هذه القضية الأساسية ، يستطيع القارىء أن يعود إلى كتابي في الاشتقاق أما هنا فسأذهب لتقديم بعض الدراسات ووجهات النظر التي هي مصدر من مصادر علم الدلالة الداخلي والبنيوي . وهي وإن كانت ما تزال في الخفاء إلا أنها تسمح لنا من الآن فصاعداً ، أن نقوم بعمل تجديدي ضمن دراستنا .

3 . حقــول Trier اللســـانيــة

لقد قام J. Trier في كتابه « Der deutsche (Heidelberg, 1931) wortschatz im Sinnbezirik des verstandes » ، بدراسة تنتسب إلى القطاع المفهومي للإدراك وبين أنها تشكل كلاً مبنياً يرتبط في داخله كل عنصر مع الآخر .

كان Trier و Weisgerber يظنان أن مفاهيمنا تغطي حقل الواقع كله دون أن تدع فراغاً . وينتج عن هذا أن أي تغيير ضمن حدود مفهوم ما يؤدي إلى تغيير في المفاهيم المجاورة ، كما يؤدي بشكل غير مباشر إلى تغيير الكلمات التي تعبر عنها .

ولاحظ Trier بأن مفردات المعرفة الألمانية قد اعتمدت في بداية القرن الثامن عشر على ثلاث كلمات : (Wîsheit ـــ الحكمة) ، (Kunst ـــ الفن) ، (List ـــ المصطنع) . وبعد قرن من هذا نجد (Wîsheit ، Kunst ، Wizzen) . ولكن يجب أن لا يظن أنه وجد إبدال فقط بين Wizzen و List . فلقد تغير في الواقع ، معنى الكلمات الثلاث ضمن تحدد كلي للبنية اللفظية ولرؤية العالم التي تعكسها .

كانت كلمة Kunst في عام /1200/ تنطبق على حدود اللياقة للمعرفة ، كما كانت تنطبق على مجموع معارف قضاة محاكم العمال ، والفرسان . أما List فقد كانت تنطبق على السائقين . وتوصف بـ Kunste معرفة قانون حسن اللياقة ، وطريقة القتال في المباراة ، والموقف تجاه النساء ، وأيضاً معرفة فن المشاعر وبشكل عام الفنون الجميلة . كما يوصف بـ Liste الطب ، وعلم الفلك ، وكل المهن والمهارات التقنية للصانع اليدوي .

لقد ترجمنا Kunst و Liste إلى فن وصناعة ، لأننا لم نجد ترجمة أفضل . ولكن التعارض بينهما يعبر في الواقع عن فرق في الطبيعة والشكل الجوهري للمعرفة وليس في الطبقة الاجتماعية وموقفها من المعرفة . فإذا ما نظر إلى كلمات مثل : الجَلَد في الحرب ، والسيطرة على الذات ، فسنجد أنها تعتبر Kunst عند النبلاء و List عند الوضعاء .

أما فيما يخص Wisheit (الحكمة) فإنها تتعارض مع Kunst و

List وتغطيهما أيضاً. إنها المعرفة الروحية، منظورة في الوقت نفسه بمنظور الأخلاق، والجمال، وخاصة الدين، وذلك مقابل بعض المواقف والقدرات العملية المتمثلة بالفنون الجميلة وتقنيات طرق السفر.

تعكس الكلمات الثلاث، إذن، وضعاً ورؤية خاصة للعالم. النظام المادي المضاعف للمعرفة والذي يعارض بين مجتمع يأخذ باللياقة (Kunst)، ومجتمع لا يأخذ بها (List). ولكن هذا العالم المقسوم إلى شكلين من أشكال فهم الواقع الاجتماعي والاقتصادي يجد وحدته مجدداً في النظام الروحي. وهذا يعني أننا نقف موقفين خاصين إزاء الفعل والعلم المادي. ولكن كلا الموقفين يبدوان واحداً أمام الحكمة الأخلاقية والمعرفة الإلهية التي تغطيهما معاً.

ولقد انقلب هذا الرسم البياني بعد مرور مئة عام. وحلت محل List كلمة Wizzen (المعرفة). غير أن محتوى الكلمات الثلاث وعلاقاتها مختلفة:

1200

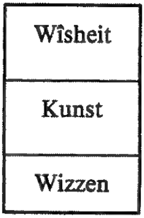

1300

فكلمة Kunst تشير الآن إلى أعلى مراحل المعرفة. وتتجه نحو المعنى المعاصر لكلمة Art (فن) ومخالفة لكلمة Wizzen التي تنطبق على المعرفة بشكل عام، وعلى المهارة والقدرة التقنية بشكل خاص، ولكن دون مفهوم اجتماعي. ولذا يمكن، من الآن فصاعداً، أن نتصور الفرد وقدراته بمعزل عن طبقته الاجتماعية.

أما كلمة Wîsheit، فلم تعد تغطي ميداني Kunst و Wizzen. فقد صار اختلاف المعرفة المادية والحكمة الروحية اختلافاً جوهرياً. وصار هذا الرسم الجديد يعكس تفكك الوحدة الكاثوليكية للمعرفة الخاصة بحضارة القرون الوسطى.

وهكذا نرى أن الكلمات تشكل «حقلاً لسانياً» يغطي حقلاً مفهومياً ويعبر عن رؤية للعالم تعيد تنظيمه.

لقد كانت أفكار Trier أساساً للعديد من الأعمال. فقد بين Hans Sckommodau في الفرنسية مثلاً، كيف أن هبوط مفاهيم الأخلاق، خلال القرن الثامن عشر، قد حط من قيمة الكلمات للحياة العاطفية. كما بين كيف تحولت مفردات الحساسية بمقارنة الحساسية الأخلاقية مع الحساسية المادية.

4 . حقــول Trier

إن مفهوم الحقل الدلالي ، كما حدده Trier ، يعتبر الثورة العظمى لعلم الدلالة الحديث . وكان لا بد لهذا من إثارة بعض الانتقادات واستدعاء بعض الاصلاحات .

إن فكرة الحقل الدلالي المتجانس الذي يحتوي على فراغ أو على تراكب لا تدعم الامتحان لا سيما إذا خرجنا من ميدان المفاهيم الثقافية المفضلة عند Trier والتي وقع اختياره عليها . فمفردات عالم الفيزيـاء والمادة تختلط دائماً ضمن حدودها . ومن جهـة أخـرى ، فإن Trier عندما ينطلق من المفاهيم يجهل أهمية التغيرات الصوتية والدلالية التي تؤثر تأثيراً مباشراً في اللغة .

ونتج عن هذه الانتقادات تعريف جديد للحقل اللساني . ولهذا نقول أيضاً : « حقل دلالي » ، وهو يقوم على معايير مختلفة .

ولقد عرّف كل من Jolles و Ispen كلمة « الحقل » انطلاقاً من المعـايير الشكليـة واللسانيـة . ولا يختلـف الحال بالنسبـة لـ Bolly في « الحقول المشتركة » . فحقل كلمة مثل « بقر » تجعلنا نفكر بـ :

1 . آ . بقرة ، ثور ، عجل ، قرون ، اجتر ، خوار ، إلى آخره .

2. آ ــ حراثة، محراث، نير، إلى آخره.

3. آ. توحي، أخيراً، بأفكار القوة، والتحمل، والعمل الدؤوب. ولكنها توحي أيضاً بالبطء، والثقل، والاستسلام.

وتتدخل اللغة المجازية كلغة مفاعلة (مقارنة، تشبيه، أمثال، جمل مقولبة): قارنوا بين الريح ونوع قرون البقر، اجتر فكرة، وضع المحراث قبل الثور، قطعة البقرة (أي الشيء الجوهري)، كقوى مثل ثور، إنه ثور عمل، ثور كبير، إلى آخره.

نرى هنا تعريفاً يختلف اختلافاً كلياً للحقل عن تعريف Trier. فمفهوم البنية اللفظية مفهوم معقد، ويؤدي إلى دراسات أسلوبية مختلفة، وذلك بحسب وجهة النظر المتبناة. غير أن القضية ما تزال من غير امتحان ولم توضح في مجموعها بعد.

5. علــم الألفــاظ لـ Matoré

يشكل علم الألفاظ لـ Matoré واحداً من أحدث تطورات علم الدلالة البنيوي. إنه دراسة «للحقول الدلالية» التي تتناسب مع دراسة Trier باعتبار أنها على تماس مع الدراسات اللسانية. وذلك لأن «موضوع علم الألفاظ، كما يرى المؤلف، موضوع خاص. فانطلاقا

من دراسة المفردات نحاول أن نفسر مجتمعاً ما، ونستطيع أيضاً أن نعرف علم الألفاظ كنظام من الدراسات الاجتماعية التي تستعمل المادة اللسانية، أي الكلمات[1] ».

إنها قضية مزاج ورؤية بصورة خاصة، هذا لكي لا نتكلم هنا عن المنهج الـــذي يفـــرق بين Trier و Matorè. فالأول منهمـــا « فيلسوف »، ويتبع تقاليد المدرسة المثالية الألمانية. وأما الثاني فعالم اجتماع ويتبع المدرسة الفرنسية الممثلة بـ Miellet، Brunot، Vendryes.

يدرس M. Trier، قبل كل شيء، الحياة الروحية والأخلاقية لكي يحيط « بروح» أمة من الأمم، وعصر من العصور. أما M. Matoré فيهتم بصورة أساسية بالموضوع المادي، والاقتصادي، والتقني، والسياسي للمفردات.

إننا نعرف وجهة نظر فقه اللغة التقليدي، ولكنه يُحل مفهوم البنية محل الدراسة « الذرية » للكلمات معزولة.

يحدد M. Matoré بادىء ذي بدء « الأجيال اللسانية »، ثم يعين

(1) G. Matoré: La méthode en lexicologie, Domaine Farançaise. Paris, Didier, 1950. P.50.

المراحل التاريخية الكبرى، فيدرس من خلالها البنية اللفظية من منظور سكوني. وهو يقسم الفترة ما بين عصر النهضة ونهاية القرن التاسع عشر إلى أحد عشر جيلاً، كل جيل يساوي ثلاث عشرة سنة.

ويلاحظ في كل حالة من حالات اللغة، وجود «كلمات شهودية» أو مولدة، تتناسب مع مفاهيم جديدة، وتظهر في المجتمع في لحظة خاصة من تاريخه. ولبعض هذه الكلمات أهمية أساسية، مثل: «Honnête homme ـــ رجل شريف» في القرن السابع عشر، أو كلمة «فيلسوف» في القرن الثامن عشر، حيث تعتبر هذه كلمات مفتاحية تسيطر على الكلمات الأخرى وتتوسط المركز في حقل مفهومي. وإن من مهمة علم الألفاظ أن يقيم، وأن يحدد، وأن يدرس الحقول المفهومية التي تميز مجتمعاً من المجتمعات.

سنعرض فيما يلي مثلاً يعطيه المنهج في علم الألفاظ، وهو عبارة عن مخطط للدراسة اللفظية لجيل /1765/، كما سيكون فيه الحقل المفهومي للفن والتقنية للعصر نفسه تقريباً.

اللفظ في عام 1765

آ. النموذج الاجتماعي: الفيلسوف.

ب. الغايات: السعادة.

جـ . الوسائل .

1 . العقــل والأنــوار

آ . عقل : سمته : لا سلطة ، ولا تقليد : تقليدية (1720) ، انتقائية (1755) .

ب . النور : عصر الأنوار .

1 . المنهج :

آ . تحليل : حلل (نهاية القرن السابع عشر) .

ب . تجربة : تجريبية (1736 ، الطب) .

جـ . تركيب : (القرن السابع عشر : ديكـارت) والنسق .

2 . النموذج : الطبيعة : أهم موضوع علمي ، الملاحظة .

آ . 1 . علوم طبيعية : علم الحيوان ، علم النبات ، إلى آخره .

2 . حق طبيعي : الـ «المتوحد الطيب» .

3 . أخلاق طبيعية : تأليهية ، إلحادية ، شعـوذة (1722) .

ب . الطبيعة والشعور .
1 . الفن : المثل الأعلى .
2 . تذوق الطبيعة : حديقة إنكليزية ، إلى آخره .

2 . الشعور

1 . في الحياة : حساس ، شعوري ، رومانتيقي ، منافحة عن الانفعالات (حماس حاد ، وجد ، بواخر ، دموع) .

2 . في الفن :

1 . القلب : شعور ، تأثر ، مؤثر ، هام ، جميل .
2 . الخيال ، القريحة .
3 . الابتكار : عبقرية ، سحر ، سرقة أدبية (معنى أكاديمي انتهى إلى معنى سيىء) .

3 . في الفلسفة : باطني (1755) ، روحي (1775) .

3 . الأحاسيس

1 . في الحياة : المتعة ، مفردات الغزل ، اللذة ، مشاغل ، طيبة ، ملك ، نزوة ، إلى آخره .

2 . في الفن : (دور هام للفن ، الفكر فيه أقل مما هو في الأدب : رسم ، موسيقى) .

3 . في الفلسفة .

4 . **الاجتماعيــة** : الفكر ، الحوار ، الذوق ، فساد القلب .

5 . **الفضيلــة**

د . النتائج .

1 . تصنيف جديد للعلوم : علم النفس (نفساني 1760) ، الجمال (1753) .

2 . تقدم العلوم : تجاوز العقلية ما قبل العلمية . العلوم ومشكلة المدونات .

تقــدم العــلوم :

آ . 1 . علوم الطبيعيات .

2 . الكيمياء .

3 . الفيزياء .

4 . الرياضيات .

ب . 1 . علوم الاقتصاد : اقتصادي (1767) :

الفيزيوقراطيون[2] ، مفهوم الطبقات الاجتماعية .

2 . العلوم الفلسفية .

3 . الفنـــون .

آ . الميول الذوقية : أكاديمية ، الطرافة ، العبقرية .

ب . علم الجمال الجديد : من الجميل إلى المثل الأعلى .

جـ . الإنجـازات :

1 . فنـون تشكيليـة (فنـون جميلـة) تطورهـا : الرسم .

2 . الموسيقى .

3 . الأدب (الآداب الجميلـة) نثر ، شعــر .

المفردات الأدبية : نبيل لفظة جيدة ، توليد .

4 . الحياة الاقتصادية : المواد (الموسوعـة) . التجـارة : رأسماليـــة (1759)ـــ استيراد (1784) ، تجاري (1749) ، محاسبـــة (1753) .

5 . الأفكار الجديدة .

(2) مذهب الإقتصاديين الذين يعتبرون الزراعة مصدر الثروة الوحيد.

آ . التحليل ، الموسوعة ، المفاهيم الجديـدة ، فن ، تقنية ، علم ،تقييم فكرة العمل ،آلية (1742) ، صناعي (1770) .

ب . تطور وتقدم : الإكتماليـة (1750) ، مكتمـل (1767) ، انحطاط (1770) .

جـ . الفرد والمجتمع : الفردية ، العبقرية ، المجتمع ، الحياة السياسية ، الحرية ، الوطن ، الأمة ، الإنسانية .

د . تركيب : فكرة الحضارة (1769) .

تُبرز اللوحة ، في ا لتحليل ، ضيق استقلالية المفهومين ، تماماً كما نجدهما في الكتابات عبر الزمن ، وخاصة صالونات ديدرو والموسوعة .

لقد أصبحت أفكار M. Matoré ومنهاجه حقيقة واقعة في عدد من الدراسات الهامة مثل : أطروحة المؤلف نفسها حول المفـردات والمجتمع في عهد Louis- philippe ، وكذلك أطروحة M.A.j. Graimas عن العالم سنة /1830/ . وهي عبارة عن محاولة وصفية لمفردات الثياب وذلك كما تظهر في صحف العصر . ويضاف إلى هذه الأطروحات أطروحة M.B. Quemada عن تجارة الغراميات في الروايات الاجتماعية (1670-1640) .

إن هذه الأعمال، سواء بطرافتها أو بعنايتها المنهجية المستمرة، قد ركزت على أهمية «الحقل اللساني» وأعطته المكان الذي لم يعط له حتى الآن، وخاصة في فرنسا.

إن الدراسة التي قام بها Sperber عن «عوالم التفكير»، وتلك التي قام بها Belin- Milleron عن «المنعطفات اللسانية» تضع في حيز البداهة الجانب النفسي واللساني لهذه القضية.

6. عوالم التفكير لـ Sperber

يرى M. Sperber في القوة الانفعالية مصدراً من مصادر الخلق اللساني وتغيرات المعنى.

ويكون في المجتمع وعند الفرد عوالم مفضلة للتفكير، وأنواع من المواضيع المستأثرة. ويعود السبب في هذا إلى الوسط من جهة، وإلى النشاط من جهة أخرى: فالأرض والفصول مثلاً، تحتل مكاناً كبيراً في تفكير الفلاح واهتماماته. وكذلك شأن البحر والملاحة عند الصياد. ولكن بعض هذه الأسباب يعود للظروف أيضاً. فمواضيع الدين في بعض الأوقات، ومواضيع السياسة أيضاً أثناء ثورة من الثورات تأخذ أهمية خاصة. وهكذا نجد أن الخوف والحقد أو إرادة القوة تستطيع في زمن الحرب أن تغزو حقل الشعور الباطني. لأن المقصود هو

الاستحواذات المنتشرة، وليس الثابتة، وهي في أغلب الأحيان غير مدركة، بل هي مكبوتة بفعل الممنوعات الاجتماعية.

إنها حاضرة دائماً في اللاشعور، تراقب تفكيرنا وتؤثر في اللغة، وذلك من خلال اتجاهين: الجذر والمد. ولذا فهي تستطيع أن تجذب أفكاراً أخرى، وكلمات أخرى إلى مدارها وذلك باستعارة صور من الواقع الخارجي. فالرشاش يصبح بالنسبة للجندي طاحونة قهوة، أو آلة الخياطة، أو آلة رش السلفات، أو رشاش المياه، إلى آخره. كما نعلم، في هذا الصدد، الثروة الهائلة من التشبيهات التي تملكها اللغة العامية إزاء تعيين المال، والجنس، أو الحب، وما يوجد من المواضيع المستأثرة.

وتستطيع القوة الانفعالية أن تؤثر عن طريق إزالة الضغط، فتتفجر الموضوعات وتصبح مصدراً هاماً للصور. وهكذا فإن اللغة في بعض العصور وبعض المجتمعات العسكرية والدينية أو السياسية تعالج المفردات. ويكفي أن نتأمل بتوسع المصطلحات العسكرية ومصطلحات الصيد في العصور الوسطى، وكذلك التشبيهات المستقاة من الحياة الدينية ومن الطقوس المتبعة أثناء الحروب الدينية، إلى آخره.

إن أطروحات Sperber تنفتح على منحى من مناحي الأسلوبية المعاصرة، مستوحاة من التحليل النفسي. ولا أستطيع هنا إلا أن أرجع

القارىء إلى كتابي في الأسلوبية وإلى التحليل الذي قمت به لأعمال باشلار، وبارت، وجان بيير ريشارد، وموررون، إلى آخره. وقد كشفت عن وجود مفردات لها حظوة عند معظم كبار الكتاب، وهي تظهر بضغط من قوى لا شعورية في أغلب الأحيان.

ولقد عرفت هذه الظاهرة اللاشعورية حين وضعتها تحت مصطلح القيمة الناقلة، وذلك من خلال المنظور الوصفي الذي أعطيته للتشبيه المؤسس وكأنه محطة إبدال دلالية. وبالتأكيد فإن هذه الوقائع من أصل فردي، أي أسلوبي بالمعنى الدقيق. وهي تضطلع بدور مصيري في تشكيل اللغة العامة.

7. اللسانيات على مفترق الطرق لـ Belin- Milleron

إن Belin- Milleron عالم الاجتماع والمنطق، قد وضع في حيز البداهة وجود منطق (واقعي — معقد) ومتميز من المنطق المفهومي التقليدي. ويقوم هذا المنطق في اللغة نفسها وفي المشتركات الشفوية التي وجدت بفضل ترابطات لسانية متميزة، أو ما سماه Belin- Milleron «مفرق طرق التفكير اللساني».

حين وقف المؤلف محللاً اللغة السياسية للثورة، بين أن مفاهيم

القانون والوطن مثلاً، تكون دائماً في النصوص الثورية مشتركة مع الأفكار الوجدانية نفسها أو التقنية. «إنها تمر عبر الطرق نفسها»، وذلك لأنها مشتركة بروابط المصالح العامة نفسها:
الوحدة، الشعب، السعادة، الفضيلة، الحرية، التضحية، إلى آخره.
ولكثرة ما نرى في النصوص وفي الخطابات فكرة القانون والوطن مشتركة مع الكلمات نفسها، وداخلة في حالات واحدة، فإننا ننتهي إلى ضبطها، ولا يدخل هذا الضبط في تعريف الكلمات والقنوات المنطقية التقليدية، ولكنه يدخل في تلاقي الروابط التي تشكل سلسلتي مفاهيم القانون والوطن.

وهكذا، كما يبدو في الفكر الشعبي العام أن «كل مفهوم يفتح سلسة لا يكون مفهوماً قسرياً تعزله اللغة، ولكنه يكون تراكماً من التحديات والمجازات». والمعرفة التي نملكها عن هذه المفاهيم إنما هي ذات طبيعة «واقعية ـــ معقدة، وتعتمد على تحديدات مضاعفة ذات طبيعة روحية، ووجدانية، إلى آخره، ولا تعتمد على تعريفات منطقية قسرية.

إن هذا نقد للمنطق الأرسطي. وما يهمنا هنا هو الطبيعة اللسانية للظاهرة، مضافاً إليها الفرضيات والطرق التي تفتحها على الدلالة البنيوية.

8. الحقـــول الـــدلاليـــة

تجري في الوقت الراهن مجموعة من الأبحاث، هدفها المشترك وصف مجموعات المفردات، وذلك عن طريق نظام من السمات المعنوية البسيطة. ويبحث هذا النظام في نماذج الكلمات انطلاقاً من اللسانيات الحديثة، وبصورة خاصة، انطلاقاً من الدراسات الصوتية.

وتطمح هذه الدراسات أن تتجاوز مفهوم الحقل ــ الضيق والسطحي ــ لتصل إلى بنى أكثر عمقاً وعمومية في الوقت نفسه. وذلك بأن تدخل هذه البنى المفردات في كليتها.

يعتبر الفصل القادم بياناً عن هذه الأبحاث التي لم تتقدم بعد إلا قليلاً، والتي تخيب الآمال غالباً. وسنرى عدداً من الأمثلة عن «الحقول الدلالية»، مستعارة من G. Mounin و Bottier، ومني أيضاً. ولكن إذا كانت هذه الحقول تستطيع أن تجد مكانها هنا، فذلك لأن المقصود هو مفهوم الحقل وليس مفهوم النسق.

والمشكلة هي في إرجاع هذه الحقول إلى أنساق حقيقية، وهذه المشكلة هي التي تعترض حالياً مختلف علوم الدلالة وعلوم الألفاظ المستوحاة من البنيوية. ولا نستطيع أن نقول إن هذه المشكلة قد

حلت، وفي الواقع، إننا على حق إذ تساءلنا عما إذا كان بالإمكان حلها، أو حلها على الأقل ضمن المصطلحات التي تطرح نفسها فيها.

الفصـــل الســـادس

علــم الدلالــة البنيــوي

إن علم الدلالة كما تصوره Bréal من قبل لم يكن غير دراسة تاريخية. ونرى، على العكس من ذلك، مختلف النظريات التي جمعناها تحت عنوان «الحقول الدلالية» أو «اللفظية» أو «اللسانية». إنها الخطوط الأولى لعلم دلالة وصفي. وهذه الخطوط حسب تعليمات سوسير، تبحث عن تعريف متزامن وبنيوي للمعنى.

لقد كان ريع هذه المحاولات، على كل حال، ضعيفاً، بل سلبياً. وعلى هذا، فالكل متفق إلى درجة يتساءل معها الكثيرون عما إذا كان هذا المشروع طوباوياً.

لوحظ، في الحقيقة، أن هذه البنى اللفظية بعددها الصغير جداً، هي نفسها دائماً في كل مكان، وأن كل بنية منها لا تغطي إلا حقلاً مفهومياً مختصراً.

وهكذا نرى أن المقصود إنما هو كلمات تغطي «الألوان»

و «الرتب العسكرية» و «حدود القرابة»، إلى آخره. إنها مجموعة صغيرة من الكلمات لا تزيد على اثنتي عشرة تغطي حقلاً محدداً، ومقسماً إلى مفاهيم متميزة ذات علاقات متكاملة: فالألوان والرتب عبارة عن درجات لسلم، والعدد هو الذي يحدد المساحة التي تغطيها كل واحدة.

إن هذه البنى اللسانية تتناسب مع بنى مفهومية، تؤكد الملاحظة لنا بأنها تشكل حالات خاصة واستثنائية، وواضح من جهة أخرى، أنه خارج هذه الاستثناءات لا نستطيع أن نخلط حقلاً دلالياً مع نسق صوتي أو صيغي يعتبر فيه كل عنصر من العناصر ضرورياً لعمل المجموع والذي وحده يستحق اسم البنية. إن الحقل الدلالي مكون من مجموعة من العلاقات حيث يأخذ فيها كل مصطلح علته، ولكن ليس بشكل ضروري أو آلي. وهذه السمة المحتملة للعلاقات اللفظية تمنع كل أمل في جر المفردات نحو نسق مبني كلية.

إن هذه، مع ذلك، هي الطريق التي التزمت اللسانيات الحديثة بها منذ بعض العقود من السنين والتي كتبت فيها هذه الأسطر.

وقد آن الأوان لرسم بيان عن هذا المشروع.

وكما هو متوقع، فإن مختلف المدارس، التوزيعية، والتحويلية،

والتوليدية ، إلى آخره ، قد قدمت نماذج لهذه المضاربات النظرية ، وألحق علم الدلالة بالقواعد وبعلم الأصوات .

1 . التحليل التوزيعي

يشكل تحليل المعنى المعضلة الأساسية لعلم الألفاظ . كيف نحدد معنى الكلمة ؟ وكيف نميز بين مختلف معاني الكلمة ؟

تتفق اللسانيات المعاصرة حول نقطة على الأقل ، وتكمن هذه في اعتبار أن « الكلمات لا معنى لها ، وأن ليس لها إلا وظائفها » . وهذا يعني أن علاقات الكلمة ضمن الخطاب مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية هي التي تحدد معنى الكلمة ، ولا معنى للكلمة خارج الخطاب .

لقد ميز Littré بين أربعة وستين معنى للفعل (Tirer — سحب ، سكب ، شد)[1] ، وأعطاها بشكل مختلط وبلا ترتيب . ويبين التحليل ، في الواقع ، أننا نستطيع أن نختصرها إلى أربع فئات . الأولى ، وهي الأكثر أهمية ، هي تلك التي تجمع كل المعاني وتتضمن حركة لشيء يقوم به فاعل يشد هذا الشيء إليه .

(1) لقد نوقش هذا المثل في كتابي Structures étymologique. P. 171-177.

ونلاحظ حينئذ أن مختلف المعاني الموجودة في Littré مثل: سكب الخمر، أو الساق، أو الأبقار، أو العربة، إلى آخره، تتعلق بطبيعة الشيء المسكوب، وذلك حسبما يكون متحركاً أو غير متحرك، جامداً أو سائلاً، إلى آخره. ونجد هنا أن المعنى مرتبط، من جهة أخرى، بأداة السحب: اليد، الحبل، الصنبور، إلى آخره.

وهكذا نرى أن الشيء يحدد الفعل (أو يحدده فاعله أو أداته). وبالمقابل أيضاً، فإن الكلمات: عربة، خمر، الرواتب، إنما تعرف (جزئياً) بتلك الخصوصية التي لها، أي بكونها تستطيع أن تكون مسكوبة.

إن هذا التعريف النحوي للمعنى هو قاعدة التحليل التوزيعي. وهذا التحليل يحدد ويصنف الكلمات ومعانيها عن طريق علاقاتها مع الكلمات الأخرى ضمن المجموع. وهذا يطرح مسلمة فحواها أن الأشكال التي توضع ضمن سياق متماثل لها خصائص مشتركة يحددها هذا السياق.

فإذا أخذنا جملاً مثل: يسكب الخمر (خمر التفاح، البيرة، الخ) من البرميل فسنعقد الرأي على أن الكلمات (خمر)، (خمر التفاح)، (البيرة)، تنتسب إلى فئة واحدة.

نرى أن هذا التحليل يرفض كل مرجع إلى المعنى (أي إلى

المضمون الدلالي) والمشكلة هي في معرفة ما إذا كان المعنى حين سيسترد ويُدخل مجدداً في نهاية العملية، هل سيكون ثانوياً في منهج شكلي من حيث الأساس؟ إن القرابة الدلالية للخمر، ولخمر التفاح، وللبيرة، محددة فقط بالخصائص التي تستطيع هذه الكلمات القيام بها، بإبدال، ضمن السياق نفسه.

سنركز على السمة الثورية للمنهج الجديد. فإذا كنا نشير غالباً إلى التكرار الدوري للنماذج ولوجهات النظر، فيجب علينا أن نلاحظ أن هذه «النزعة المضادة للذهنية» (رفض العودة إلى المعنى كمضمون ذهني) تشكك بتقليد يعود تاريخه إلى أصول التأمل النظري والعملي للمعاجم.

يعتبر L. Bloomfield على رأس مدرسة Yale في الولايات المتحدة، الأب للمنهج التوزيعي. وقد استفاد تلميذه Z.S. Harris من كل النتائج. فتحت أشكال صافية، ومستقيمة ودقيقة إلى حد ما، سيطرت التوزيعية على كل العمل المعجمي الأكثر حداثة.

وهذه هي الحالة بالنسبة للقاموس الفرنسي المعاصر لمؤلفه Jean Dubois، وهي الحال نفسها بالنسبة للجزء الأول (ظهر حديثاً) للقاموس المسمى بكنز اللغة الفرنسية Trésor de la langue française الذي ألفه Paul Imbs، وإذا بقي قاموس Robert محافظاً إلى حد ما،

فهو يغذي تفكير مجموعة من الباحثين كانت قد وضعت إشكالية المعنى في مركز تفكيرها، كما وضعتها في مواجهة بين الآمال في إحداث نظرية ثورية وبين سلوك لا تزال المحدودية والسكونية فيه كبيرة.

ونقرأ عن أعمال المعجميين المنظرين، وبصورة خاصة عن أعمال J. Rey- Debove و Alai Rey، Jean Dubois، مقالات نشرت باستمرار في Les cahiers de lexicologie، وفي العدد الجماعي لـ Langue Française (عدد 4 الدلالة، وعدد 2 الألفاظ)، وكذلك قراءات في علم الألفاظ لـ Alain Rey.

إن هذه التنظيرات المتقدمة جداً في أغلب الأحيان والمجردة جداً، تدعم اليوم النهج المعجمي. وسنضرب على ذلك مثلاً بمادة (Abandonner ـــ ترك، تنازل عن) في قاموس Trésor de la langue française الذي ظهر الجزء الأول منه حديثاً (1972).

إنه، بالتأكيد، لا يزال حذراً، ومن الواضح أنه يتصور المعنى دائماً معطى حدسياً من معطيات التجربة.

بعد الانتهاء من هذا، وبعد القبول بأن هذه المعاني ليست إلا استمراراً للموروث المعجمي التقليدي، نجد أن القاموس (T.L.F) يجمعها في إطار متفرد تكون سمات تصنيفه كلها نحوية.

وتشير مادة (Abandonner ــ تنازل) على هذا الأساس إلى :

1 . استعمالات متعدية .   2 . استعمالات ضمائرية .

أما في الأولى فنميز :

آ . استعمالات متعدية يكون العامل فيها شخصاً .

ب . استعمالات مع موضوع يأتي بالمرتبة الثانية ويسبق بحرف الجر (à) دائماً .

بالنسبة لما هو في (آ) فسنعارض بين الاستعمالات ، حيث أن :

1 . الموضوع هو شيء ، و 2 . الموضوع هو شخص .

أما بالنسبة للحالة التي يكون الموضوع فيها شيئاً ، فإن :

- العلاقة السابقة مع الموضوع كانت علاقة امتلاك حقيقي .
- وأن العلاقة مع الموضوع كانت علاقة امتلاك مرتقب فقط .

يرتبط نسق المعاني بهذا النسق النحوي :

آ . قطع العلاقة التي تربط العامل مع شخص أو مع شيء .

1 . قطع العلاقة التي تربط العامل مع شيء .

- علاقة امتلاك حقيقي .

وهكذا نجد أن المثل : (تنازل مالك متواضع عن حقله) ، يصنف تحت (1) ، (آ) ، (1) ، (•) (الاستعمال المتعدي ، العامل مشخص ، الموضوع شيء ، العلاقة السابقة مع الموضوع كانت علاقة

امتلاك حقيقي)، وهذا يعني أن «شخصاً يقطع علاقة كانت تربطه بملكية حقيقية».

نرى من هذا إذن، أن تمييز المعاني قد تم انطلاقاً من معايير شكلية (فئات قاعدية) تحدد علاقات الكلمة مع كلمات السياق الأخرى.

من البدهي على كل حال، أن يبقى هذا النوع من التحاليل محدوداً، وأن لا يقول لنا بصورة خاصة، كيف تعني (تنازل عن): «قطع علاقة».

يبقى التحليل هنا ملامساً سطح الكلمات. ولكننا ندرك في الوقت نفسه المهمة الرائعة ــ هذا إذا قبلنا بأنها ممكنة ــ التي ستكون في إعادة بناء بنية لفظية فرنسية في مجموعها.

إن Jean Dubois في سلسلة من المقالات والأعمال، ودون أن نذهب بعيداً، قد أمدنا بنموذج توزيعي وصل به إلى بعض درجات الإعداد المتقن. وسنرى مثلاً على هذا، كيف يعرف ويقارن بين مترادفين مثل: (Aigu ــ مسنون، قاطع، ماض) و (Pointu ــ مستدق الرأس)[1].

(1) Distribution, ensemble et Marque dans le lexique, in cahiers de lexilogie, 4,1964, I. PP. 8 et suiv.

فحين مضى دارساً توزيع هذه الكلمات ميز فيها بين ثلاث فئات :

الفئة الأولى وهي فئة مكونة من الأسماء التي تقبل الصفة : « مدور » أو « مستدق الرأس » . ومن بين هذه الأسماء ، نجد قسماً يقبل الصفة « مسنون » . وبتحديد أكثر نقول قسماً فقط . ويعد هذا انطلاقاً من إمكانات الإبدال التي تحدد توزيع هذه الكلمات .

وسنقول بناء على هذا : أظافر ، منكس ، منقار ، سهم ، إلى آخره ، مستدق الرأس أو مسنون . ويمكننا أن نقول : قبعة ، رأس ، حذاء ، إلى آخره ، مستدق ، ولكن لا يمكننا أن نقول مسنون . هذه فئة تظهر فيها الصفة « مسنون » وكأنها مجموعة تحتية لـ : « مستدق » .

ولكننا نجد هذه الحالة مقلوبة في فئة الأسماء التي تقبل صفات مثل : أطرش أو ثاقب ، وكالصوت ، وكذلك صرخة ، نبرة ، إلى آخره . ومن بين كل هذه نلاحظ أن كلمة صوت ونغمة تقبلان « مستدق » التي هي إذن مجموعة تحتية لـ « مسنون » .

وهناك أخيراً ، فئة ثالثة من الأسماء التي تقبل « مزمن » ، « خطير » مثل : (ألم ، مرض ، أزمة ، إلى آخره) . وليس لهذه الأسماء أي إمكانية للدخول في تركيب مع « مستدق » .

وبطبيعة الحال عندما ندخل المعنى، نلاحظ أن هذه الفئات الثلاث تتناسب مع ثلاثة أنواع معنوية خاصة: «الأشداء»، «الأصوات»، «الأمراض». ولكن فائدة هذه الدراسة تتجلى في أننا نستطيع أن نقف على وجود هذه الفئات وحدودها دون أن نعود إلى المعنى.

نجد في الكتب التي أشرنا إليها من قبل عدداً من أمثلة التحليل التوزيعي، والتي يضيق المجال عن ذكرها هنا. إنها تبين أن النظرية والسلوك التوزيعي قد أصبحا من الآن فصاعداً من مقتنيات علم الألفاظ وأداة من أدوات علم المعاجم، وذلك ما تؤكده القواميس الحديثة مثل: « Dictionnaire de français contemporain » وكذلك: « Le Trésor de la langue française ». وهي تظهر أيضاً المحدودية التي نشأت بسبب تعقيدها وثقلها.

ومن الطبيعي أن نقول إن تطبيقها على مجموعة منسقة إلى حد ما وخاصة على كامل المفردات ــ لأمر وهمي في الوقت الراهن بالنسبة للإمكانات التي في حوزتنا. والسبب أنه يجب أن نفهم جيداً كيف تطرح القضية.

فمن جدول (مجموعة من النصوص) نستخلص الوحدات الدالة ونحدد كل وحدة بما لها من علاقات مع كل وحدة من

الوحدات . ففي قائمة من الكلمات : ك 1 ، ك 2 ، ك 3 ، . . . ، إلى آخـــره ، قد نجد أن (ك 1) قد تعـــرف كفاعـــــل لـ (ك 15) و(ك 35) ومفعـول لـ (ك 20) و(ك 5000) ، إلى آخـره . فكلمـة (كلب) هي فاعل للفعل (نبح) و(اصطاد) ومفعول للفعل (جز) و(قطع ذنب . . .) .

إن كل الكلمات التي تكون فاعلاً لـ (ك 15) تشكـل فئـة واحدة مع (ك 1) ، وكل الكلمات التي هي فاعل لـ (ك 15) و(ك 35) تشكل فئة ثانية . ومن السهل أن نرى تحليلاً كهذا مطبقاً على جدول متسع قليلاً ، سيحتوي على مليارات ومليارات من العلاقات . وإن مثل هذه المهمة تبدو الآن ــ ولوقت طويل بلا شك ــ خارج إمكان أقوى الأورديناتورات .

2 . التحـليــل المفـهومــي

إن التحليل التوزيعي ــ كما جئنا على قوله ــ تعثر أمام مشكلات لا يمكن حلها تقنياً . وإن رفض هذا التحليـل لاستخـدام المعنـى (بسبب معاداته للنزعة الذهنية) من أجل استخدام تحديدات مجردة للوحدات اللفظية ينظر إلى التحليل الشامل (الكامـل) للجـدول

(مجموعة من النصوص) كمسلمة. ولكنه كلما اتسع قليلاً، سيخرج سريعاً عن نطاق المراقبة والملاحظة.

إن النقد الذي وجه للمنهج التوزيعي هو الأساس الذي قام عليه منهج جديد سمي بـ «التوليدية». (انظر كتابنا القواعد في سلسلة «Que-sais- Je» رقم 788). ويعتبر هذا المنهج النقيض للأول.

إن المدرسة الجديدة مدرسة استنتاجية، وعقلانية، وذهنية في خطواتها. إنها تولي بناء النماذج الاستنتاجية أهمية وتعطيها الأولوية على التحليل الشامل للجداول، وتستعيد مفهوم المعنى.

لقد كان، في الواقع، الطموح لبناء نسق دلالي يلوح في الأفق. ونجد هذا الأمر عند عدد من الباحثين الذين لا تربطهم بالحركة التوليدية أي رابطة. إلا أن هذه الأخيرة قد بلورت مشاكلهم وأعطتهم دفعاً جديداً.

وهناك عدد من النقاط المشتركة بين هذه المناهج ـــ على الرغم من اختلافها وتفرقها ـــ وهي مجموعة هنا تحت عنوان «المفهومي». فلقد أخذ علم الدلالة الجديد على عاتقه أن يعيد بناء «نسق المعاني». وذلك لأن الكلمة على مستوى الدال عبارة عن «صرة من الأصوات»، وإذا كانت كذلك فلم لا تكون على مستوى المعنى «صرة من

الوحـدات البدائيـة للمعنـى » . فكلمـــة (بقـــرة) تتكـــون من « حيوان » + « أنثى » + « أهلية » + إلى آخره .
ومن هنا يأتي اسم التحليل المفهومي (المكونات الدلالية) المعطى لمثل هذا النوع من الدراسات .

هنا نقف على مشكلة قديمة ، وقد كانت أولاً مشكلة كل المعجميين الذين يبحثون عن تعريف . وحول هذا الموضوع ، يمكننا أن نجني ثمار قراءة أعمال J. Rey Debove وخاصة كتابه « دراسة لسانية ودلالية للمعاجم الفرنسية المعاصرة (Moton, 1971) حيث نجد عرضاً ونقداً لهذه القضايا .

وتكون هذه القضية أيضاً مشكلة بالنسبة للتصنيفية . فكلمات مثل « نبات » و « حيوان » تستلزم أن نضع مجموعات غير قياسية ضمن نسق من السمات المتلائمة .

والقضية لا تنتهي هنا ، إذ يجب أن نعرف ضمن أي معيار تستطيع اللغة أن تكوّن تصنيفاً وتتماثل مع نسق من هذا النوع .

وإن لنا ، في هذا الميدان ، مثلاً مشهوراً ومفيداً هو مثل مجموع المحاولات ، من ديكارت إلى ليبنز ، والتي رأت النور تحت اسم لغات فلسفية .

إن النسق الأكثر كمالاً وفرادة من بين كل هذه الأنساق، دون شك، هو النسق الذي وضعه John Wilkins في كتابه:

Essais d'un caractère graphique et réel et d'une langue »

« philosophique (1668- Londres). ينطلق المؤلف من تحليل للمعاجم، ويقسم كل الأشياء التي نتكلمها إلى ستة أنواع، وتنقسم هذه بدورها أربعين قسماً وذلك بحسب الفوارق التي بينها. وإن كل قسم من هذه الأقسام يمثل سمة كتابية، تكون بدورها مسجلة في الأسفل وعلى يسار مثلث مستقيم، منفرج أو حاد، وذلك كي يظهر الفرق الأول والثاني أو الثالث. وتضاف أخيراً في أقصى الجهة الأخرى للسمة، سطور الأجناس الداخلة في كل فرق من الفوارق. وينقل Wilkins، من جهة أخرى، هذه الرسوم الدلالية إلى أشكال مزدوجة. وهو يفصح في هذا الصدد عن أربعين قسماً رئيساً تتمثل بمقاطع بسيطة من نوع: ba, be, bi, da, de, di, ga, ge, gi إلى آخره. ويضيف إلى هذه الجذور حرفاً يعبر عن الفرق في داخل النوع. ثم يضيف مقطعاً يميز الجنس.

هناك لغات عديدة من هذا النوع، مثل جدول النباتات لميشال أدانسون مثلاً، وكما يعطيه في العائلات النباتية (1763)، أي قبل أن يتركه لصالح التصنيف الخطي.

يجب أن نجعل مكاناً خاصاً لليبنز بين أقطاب اللغة الفلسفية العالمية، وذلك لأنه أعاد صياغة أفكار Wilkins. وإن مثل هذه الأفكار كانت موجودة من قبل عند ديكارت: «إذا قال أحد إنه شرح الأفكار البسيطة التي تؤلف في خيال البشر كل ما يفكرون به وتلقى كل الناس هذا، حينها أمتلك الشجاعة فأتمنى فيما بعد وجود لغة عالمية، يكون تعلمهما غاية في السهولة، وكذلك نطقها وكتابتها، وتقدم له بشكل مبين كل الأشياء بحيث يصير من شبه المستحيل أن ينخدع».

إن هذا حلم قديم. أليس هو حلم أرسطو ومن هم على شاكلته؟ وقد تبنت هذا الحلم اليوم علوم الدلالة البنيوية أو المفهومية مع أهم مسلماتها العالمية في المنطق اللساني الذي يتضمن تركيبه الآلي مفاهيمنا ويدعمها. وإنه لمما يثير الدهشة أن تذهب المدرسة الجديدة إلى إنكار اللغة الفلسفية كلية، هذا بالرغم من أنها تعلن مراراً وتكراراً انتماءها إلى الخط الذي ينهجه القواعديون من أتباع Port-Royal. ولو لم تفعل هذا لوجدت في هذه اللغة مواضيع للتفكير مفيدة. وإن لم تجد فحسبها أن تتعرف على الأسباب التي أدت إلى فشلها والتخلي عنها.

آ. المدونات

إن أبسط ما سنبدأ به هو المدونات.

يحتاج الأرديناتور إلى بناء لغات جديدة يقوم معظمها على تحليل مفهومي للوثائق المصنفة. وتأتي هذه الحاجة ملحة بالرغم من وجود التعريف، والتصنيف، وخزن الذاكرة بمجموعة كبيرة من شتى أنواع الوثائق.

ويمكن أن نضرب مثلاً، في هذا الميدان الخصب، بأعمال Gardin. يرى المؤلف، وهو باحث في الآثار، أن تُصنف وتُبرمج وتُبوب مجموعة واسعة من المواد أليكترونياً، كما تصنف الأدوات، والآنية، إلى آخره. ولقد صمم، من أجل هذا، معجماً اصطلاحياً تستطيع فيه كل مادة أن تحدد، وذلك إما بحضور بعض السمات الملائمة أو بغيابها، مثل: آنية مع أو دون مقبض، لها داعم أو ليس لها، بعنق أو من غير عنق، إلى آخره.

إن Gardin يصنف هنا الأشياء وليس الكلمات. والمشكلة التي تبقى هي في معرفة إذا ما كانت هذه الطريقة قابلة للتطبيق على مستوى اللغة.

هذا ما فكر به B. Pottier أيضاً حين أعد تحليلاً ملائماً للغاية عن نسق «المقاعد». فانطلاقاً من جدول إحصائي لثلاثين نوعاً من المقاعد «كنبة، كرسي، مقعد، إلى آخره»، يلاحظ المؤلف أن كل مقعد يعرف عن طريق نظام مكوّن من ست سمات من الثنائيات الملائمة: مع مسند أو دون مسند، بذراع أو من غير ذراع، له قوائم أو

ليس له، لشخص واحد أو لعدة أشخاص، إلى آخره. وهكذا، فإننا نملك نظاماً لوصف المدلولات يتساوق تماماً مع النظم الصوتية التي تصف الدوال.

هذا موضوع لدراستين قام بهما جورج مونان في كتابه: (مفاتيح لعلم الدلالة) عن حقلين من حقول علم الدلالة، وهما: الحيوانات الأهلية، والعادات. وإلى هذا الكتاب أحيل القارىء.

سنقدم هنا جزءاً صغيراً كما أعاد تشكيله جورج مونان:

اسم معين	حمار	حصان	بغل	عجل	ماعز	خروف	خنزير	الخ
مذكر	حمار	فحل	بغل	ثور	تيس	كبش	رتّ خنزير ذكر	الخ
مؤنث	حمارة	فرس	بغلة	بقرة	عنزة	نعجة	خنزيرة	الخ
شاب	كر	مهر		عجل	جدي	حمل	خِنّوص	الخ
رضاعة		نتجت		نتجت	نتجت	نتجت	نتجت	الخ
ميّال لـ								الخ
حارس مختص	حمّار		بغّال	بقّار	معاز	راعي غنم	راعي خنازير	الخ
الخ	الخ	الخ	الخ	الخ	الخ	الخ	الخ	

إن هذه اللوحة التي لم نقدم إلا جزءاً منها، توحي ببعض الملاحظات : المقصود عرض «لبنى سطحية» لم تعرف فيها «وحدات المعنى».

إنها بنية رخوة وفيها نجد /72/ خانة، منها /33/ خانة فارغة. ومن دواعي الشك أن تلقب هذه المجموعة بلقب البنية. وإذا سميناها بنية فلا بد أن نقول إنها بنية ناقصة جداً، وتدخل فيها بعض الكلمات مع بعض في علاقة صيغية : (حمار/ حمارة)، كما أن بعضها الآخر لا يدخل في هذه العلاقة (فحل/ فرس).

ونضيف إلى ماسبق أن هذا النسق مكلف جداً، فعدد السمات الملائمة مرتفع جداً بالنسبة للأشكال المولدة.

أخيراً، وكما هي الحال دائماً، نجد أن المقصود هو حقل ضيق جداً، والسمات الواصفة ــ بسبب النقصان في عموميتها ــ لا تبدو صالحة للإستخدام في وصف مجموعات أخرى. ويلاحظ أن جورج مونان على وعي بكل هذا، ويعلمنا برضى منه في ملخصه الحذر والدقيق :

«يمكننا أن نتساءل تساؤلاً مشروعاً عما إذا كانت المحاولات البنيوية المعروفة حتى الآن قد أدت إلى إعطاء نتائج مكتسبة بقوة هنا كما هي الحال في ميادين اللسانيات الأخرى ــ وتجيب بأن البنية اللفظية،

وبصورة أقل الدلالية، لم تمنح كل أسرارها». (مفاتيح لعلم الدلالة).

إن هذه الأسرار هي ما يعدنا بها «علم الدلالة البنيوي»، ومن أجلها يتوجه بطموحه إلى بناء نسق كامل للألفاظ انطلاقاً من تركيب مجموعة صغيرة من الوحدات الدلالية. ومن بين هذه الأعمال التي غدت درجة سارت على نهجها دراسات عديدة نرى أعمال Greimas في فرنسا، Katz و Fodor في الولايات المتحدة.

ب. فلســفة اللغــة لـ Katz و Fodor

لقد حاول Katz و Fodor، وهما تلميذان لشومسكي، أن يقيما تعريفاً لعلم الألفاظ التوليدي، وهـذا يعنـي بمصطلحـات المدرسة التوليدية أن القواعد تملك قدرة على توليد كل الأشكال اللفظية للغة فقط. وقد وصفا خلاصة رؤيتهما في كتابين هما:

(The structure of language, Prentice- Hall, 1964). (The philosophy of language 1966) وقد ترجم كتاب فلسفة اللغة هذا إلى الفرنسية عام /1971/.

إنه عنوان مميز يذهب المؤلفان فيه إلى أرسطو فيرفضانه، وإلى Leibniz فيتجاهلانه.

لقد كان غرضهما وضع قاموس تحدد الواسمات القاعدية كل

مدخل من مداخله (اسم، صفة، إلى آخره. تذكير، تأنيث، إلى آخره)، تحدده الواسمات الدلالية (إنساني، حيواني، إلى آخره، مذكر، مؤنث، إلى آخره)، بالإضافة إلى وجود عازل يحدد ضوابط الانتخاب. ونجد من جهة أخرى أن كل نوع من الأنواع يخضع إلى قواعد إسقاطية تحدد تحويل فئة من الفئات إلى فئة أخرى (مثلاً من الوسم إلى الصفة، إلى آخره).

وسننظر الآن إلى كلمة (تلميذ) في الثانوية كيف تظهر في مثل هذا القاموس، حيث تميز اللغة الإنكليزية بين معاني أربعة لها، وذلك انطلاقاً من الواسم الدلالي:

تلميذ بكالوريا 1. (شيء مادي)، (كائن حي)، (مذكر)، (يافع)، (عزب).

2. (شيء مادي)، (حي)، (شاب)، (فارس)، (مستخدم عند إنسان آخر).

3. (شيء مادي)، (كائن حي)، (إنسان)، (يحمل شهادة ثانوية بعد دراسة قدرها أربع سنوات).

4. (شيء مادي)، (كائن حي)، (حيوان)،

(مذكر) ، (عجل البحر) ، (بدون أنثى أثناء فترة الحمل) .

إن الواسمات الدلالية من نوع : شيء مادي ، حيوان ، إلى آخره ، ليست ، بطبيعة الحال ، شيئاً آخر غير الفئات المنطقية لأرسطو . ولكن من الصعب أن نحكم على ملاءمتهما ما لم نبن فعلاً ولم نضع قاموساً من هذا النوع . وهذا أمر لا نظنه قريباً .

أخيراً ، تصل الفئات التي تكلم عنها أرسطو إلى عشرة ، وتصل الأجناس عند Wilkins إلى ستة ، أما الأقسام فقد بلغت الأربعين ، بينما البديهة تقول إن واسمات دلالية من نوع : (مستخدم عند إنسان آخر) أو (دون أنثى أثناء فترة الحمل) ، لا تحتوي على قيمة عامة تنطلق من القدرة التصنيفية .

جـ . علـم الـدلالـة العـام

إن الدقة في علم الدلالة العام شيء آخر ، وقد كان من بين من شارك في تكوينه A.J. Greimas تلميذ Hjelmslev و Brondal .

استلهم المؤلف من النموذج الصوتي فأعاد الوحدات اللفظية إلى وحدات مركبة . ولقد عرف الكتاب بسيطرة حقيقية للمفهوم كما عرف عرضه بالدقة الكبيرة . وكان يمكن أن نعترف له بعدد من المميزات لو

لم نجد بعضاً من المفاهيم المستهلكة (ويجب أن لا يخلو الأمر من هذا) قد بحثت عن شهادة بتفردها، وذلك باستخدام مصطلحات منفرة وغير مفيدة. ونرى أخيراً أن الناحية العمليـة ليست على مستـوى النظرية، وهذا مشترك، على ما يبدو، بين طرق ما بعـد العقلانيـة والاستنتاجية.

عندما رفض Hjelmslev المعايير الوضعية والإستقرائية، علمنـا أن النموذج يجد مبرراته بالتبسيط والإستيعاب حيث هو مطالب أن يأخذ بالحسبان كل الوقائع الملاحظة. ولو أن الأستاذ نادراً ما وضع فرضياته على محك التجربة، إلا أنه قد أكد، على الأقل، ضرورة معيار الاستيعاب كشيء أولي ومطلق.

ومن النادر أن نجد تلاميذه قد اتبعوه في هذا. وإنهم إذا كانوا قد اطمأنوا إلى عالمية العقل، فإنهم قد تجاهلوا دون تردد، بل إنهم ضحوا بالواقع في سبيل نموذج «جيد الصنع». وغالباً ما يلاحظ هذا في علم الدلالة البنيوي.

ولكي ننتهي سنضرب مثلاً بالنسق الدلالي لكلمة «المكانية» وذلك كما يقوم به Grimas :

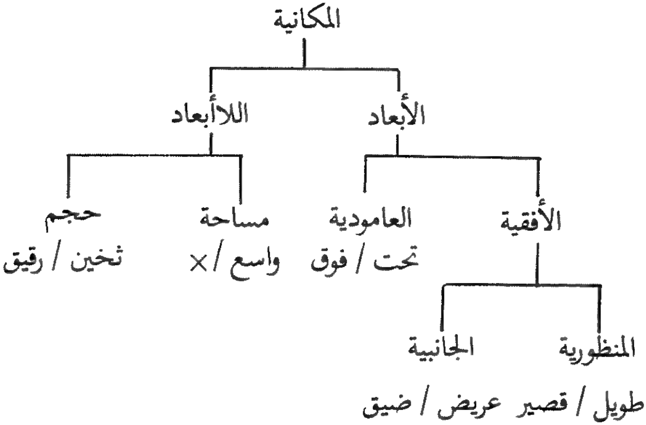

تحدد الوحدات المعنوية (معانيم Sèmes) في هذا النسق مفهوم كلمة «عريض» : «الجانبية، الأفقية، الأبعاد، المكانية».

ويستدعي هذا الوصف بعض الملاحظات التي كنا قد ألمحنا إليها في الصفحات السابقة.

نحن هنا أمام نسق مفهومي وليس أمام نسق لفظي. وتعتبر هذه الدراسة من الدراسات المنطقية، وهي وإن كانت مبررة تماماً، ولكن يجب أن يكون واضحاً أن الأشياء هي التي خضعت هنا للبناء وليس الكلمات.

سنلجأ، هنا، إلى نسق تكوّن من ست وحدات معنوية (معانيم) لكي نتمكن من تحديد ثمانية مفاهيم. وهذا يفترض بالنسبة لمجموع الوقائع وجود نموذج وصفي يحتوي على عدد من المعانيم يساوي تقريباً عدد المفاهيم، وهذا إذن هو عكس «النسق». وإننا ما زلنا بعيدين عن ثلاثين وحدة صوتية (فونيم)، كما اننا لا نزال بعيدين عن خمس أو ست سمات ملائمة للنسق الصوتي الذي ننادي به.

إننا حين حددنا كلمة «فوق» عن طريق كلمة «أفق» وكلمة «عرض» عن طريق كلمة «جانبية»، لم نفعل شيئاً غير تبديل مفهوم إشاري بالإشارة. وبهذا نكون قد سلطنا نوعاً من الخطاب الزائد على الإشارات (كلمات أو نصوص) والذي يقوم بترجمة أشياء في غاية الوضوح إلى لغة معقدة وغامضة.

ويجب أن نلاحظ أخيراً، أن علم الألفاظ لم يستعد شيئاً حتى الآن من التحليل المفهومي، ومع ذلك فإني أعتقد أن هذا التحليل يشكل واحداً من الدعائم الأكثر إيجابية والأكثر حسماً بالنسبة للسيميولوجيا المعاصرة.

لم تحل المشكلة بعد، ولكنها ما تزال على بساط البحث، وإن كتاباً كالذي كتبه Greimas ــ بالرغم من الملاحظة التي رأينا من

واجبنا أن نقوم بها ـــ سيساعد في تدشين ما هو مهم من النتائج المعرفية والمنهجية .

3 . التحليــل الاشــتقـاقـي

نستطيع أن نوجه نقدين كبيرين لكل من التحليل التوزيعي والمفهومي . إن التحليل المفهومي إنما هو رجوع إلى تقاليد المذهب العقلاني . ولقد تجاوز الحدود وجددها ، وغدا المعنى من ثم نسقاً من المعارضات التفاضلية . ولكن على الرغم من هذا التغير الحاسم للمنهج القديم ، فإن علم الدلالة البنيوي لا يتجنب الفخ الذهني حيث يقع خلط بين المنطق واللغة ، والكلمات والأشياء .

إن المعارضة ، كما قيل ، بين كرسي وكنبة عن طريق غياب أو حضور الذراع ، وكذلك الطول والارتفاع عن طريق « الأفقي أو العامودي » ، إلى آخره ، إنما هي عمليات منطقية وبدهية جداً . ولكن لا يوجد شيء يتحقق من صحة الملاءمة اللسانية . إن القاموس ، بالتأكيد يعرف كلمة « كنبة » بـ : « مقعد له مسند وذراعان لشخص واحد » ، وهذا يبرهن أن القواميس قد بينت انطلاقاً من سمات منطقية ، ولكن فحص الأسماء المختلفة للكنبة ، يبين أن هذه السمات ، مهما

كانت بدهية، ليست هي ما تستعمله اللغة في إعطاء مفهوم أو تسمية لهذه الأشياء.

وكذلك أيضاً، فإن العلاقات بين الكلمات لا تتناسب مع العلاقات بين الأشياء. فمنطق اللغة هو غير منطق المنطقيين. وقد أدت هذه الملاحظة، منذ وقت مبكر إلى تبين لا منطقية الظواهر اللسانية. وهذا هو سبب نهوض الشكلية المعارضة للذهنية ورفضها كل مرجع إلى منطق لا يتضمن قيمة نقدية.

ولكن بهذا الصنيع، فإن التحليل التوزيعي يحكم على نفسه، كما رأيناه، بالبقاء على السطح اللفظي، أو على مستوى تنفجر فيه الكلمات ذات البناء الضعيف وتنقسم إلى عدد من «الحقول» الصغيرة والمعزولة.

وقد أدى هذا الفشل، في الوقت الراهن، إلى رد فعل ذهني لعلم الدلالة البنيوي. وبات معلوماً أن تكوّن البنى لا يكون إلا في العمق، وفي بعض مستويات التجريد والتعميم. ولكن هذا العلم مقدم، في رأيي، على ارتكاب خطأ أساسي في بحثه عن «عالميات» اللغة ضمن المنطق، وخاصة في التعريفات القاموسية التي تقوم تقليدياً على أصل منطقي وليس على أصل لساني.

ليست هذه العقلانية المحدثة إلا عودة إلى «فلسفة اللغة» لـ Kilkins و Leibniz . وإن الفشل الذي منيت به يجب أن يكون دعوة للتفكير بالنسبة لنا .

إن النزاع الجاري حالياً بين الذهنية وخصومها يقوم ، فيما أرى ، على نظرة غير صحيحة فيما يخص العلاقات اللسانية . ومما لا ريب فيه أن هذه العلاقة علاقة خاصة، وهي لأنها كذلك تخرج عن طوع المنطق . ولكن ليس صحيحاً أن تكون لا منطقية . ويجب أن يقوم اتجاه ثالث يقف بين شكلانية بعضهم وعقلانية بعضهم الآخر ، ليقصر أثر منطق الكلمات ، ويكون مميزاً من منطق الأشياء وملازماً للنسق .

أعتقد فيما يخصنا أننا نستطيع أن نراه بوساطة الاشتقاق ، على ألا يكون المقصود هنا هو التعريف أو التصنيف الاشتقاقي للكلمات من النوع التقليدي .

وقد حاولت ، انطلاقاً من هذه الفكرة ، في كتاب لي أن أحدد نهج التحليل البنيوي للمعنى وذلك تحت البنى الاشتقاقية للألفاظ الفرنسية . وألح على هذه النقطة ، لأن العنوان ، مبهم عن علم ، قد استطاع أن يوحي بأن المقصود هو الدراسة التاريخية ، بينما نرى في الواقع أن الاشتقاق هنا إنما هو في خدمة الآني ، وهذا هو تعريف للبنى المعنوية للكلمات التي هي أساس البحث .

ليس في نيتي أن أعارض أو أن أقارن بين هذا المنهج والتحليل التوزيعي ، أو التحليل المفهومي . فأنا أعتقد أن الثلاثة يتكاملون . فكل واحد يتحقق من صحة الآخر ، أو يضيء بعض الميادين ، أو بعض القضايا الواقعة خارج اهتمام الاثنين الباقيين .

إن الفكرة التحتية للمنهج تكمن في أن المضمون المعنوي لكلمة من الكلمات يرتبط بعلاقة مع أصل الكلمة . ولكن لنضرب مثلاً : كيف نحدد المضمون المعنوي لكلمة مثل : « الغش ، المكر ، الخديعة » ؟ .

إن التحليل التوزيعي يذهب إلى إحداث مواجهة بين مجموع توزيعات الكلمة .

والتحليل المفهومي يذهب إلى تصور نسق معنوي يعطي تركيبه بياناً عن هذا التوزيع .

أما التحليل الاشتقاقي فيبدأ بإقامة جدول يضع فيه كل الكلمات التي تعني « غش ، الغش ، غشاش » . وانطلاقاً من اشتقاق كل كلمة من الكلمات يُبنى نسق هذه الأصناف الاشتقاقية .

ولقد جمعت في مقال لي نشرته حديثاً /250/ كلمة كلها في معنى « الغش » . وهذه الـ /250/ اشتقاقات ترجع إلى عدد صغير جداً

من الصور المحدودية والمولدة لهذه الفكرة . فلننظر إلى هذا النسق الذي تظهر بموجبه كلمة « غش » كما يلي :

آ . **(قبض على متهم ، غنيمة ، مغنم) :**

1 . صيد بالفخ : أمسك ، مخاتل ، فخ للحيوان ...

2 . سجن : أضل ، غرز ...

3 . امتلاك جنسي : لثم ، خدع ...

ب . **(رياء ، نفاق ، مواربة) :**

1 . حيلة : عمل ، زيف (طلي بالمساحيق) ، مكر ...

2 . تنكر : اصطنع ، زين القبيح ...

3ـــ مظهر كاذب : مخادع ، تظاهر ، خديعة ...

جـ . **(إسقاط الحكم غيابياً) :**

1 . تسلية ، ضلال ، أضل ، تاه ...

2 . إخفاء الحكم : نوم ، أعمى ...

3 . مفاجأة : مفاجأ ، مخدوع ، غيب ...

د . **اعتداء على الإيمان ، على القانون ، على القاعدة .**

هـ . **« سخرية » ، « مزاح » ، « تبجح » .**

يستدعي هذا التحليل بعض الملاحظات . وأولى هذه الملاحظات أن الجدول المكون من /250/ كلمة مجتمعة لا يتوافق مع

حالة لغة منسجمة آنياً. وذلك لأن الكلمات تنسب إلى عصور ومستويات مختلفة (علمية، شعبية، مبتذلة).

وثاني هذه الملاحظات هي أن العلة المذكورة هنا إنما هي علة اشتقاقية بحتة. وإن معظم هذه الكلمات في إطار فترة معينة ومجموعة خاصة، تبدو وكأنها قسرية أو تستثمرها علة كاذبة.

إن المفاهيم التي أدخلها التحليل الاشتقاقي في حيز البداهة («قبض على متهم» «سجن») تكوّن مجموع الصور. وقد أخذت الكلمة «الغش» عبر هذه الصور مفهومها وتسميتها.

المقصود إذن هو المكون الدلالي (المعانيم). وتستخدم تركيبات هذا المكون في تشكيل مختلف الدعائم اللسانية التي تعبر عنها.

وتعيد هذه المقاربة الاشتقاقية طرح القضايا ثانية من خلال مصطلحات جديدة: العلاقة بين الزمني والآني، بين البنية والتاريخ، بين العلة والقسر، إلى آخره. ولا أستطيع هنا إلا أن أحيل القارىء إلى كتابي «البنى الاشتقاقية» حيث نوقشت هذه القضايا.

هذا، وإن المثل الذي ضربناه، سيثير عدداً من الافتراضات التي سبق لنا أن واجهنا أمثالها. ونعيد الكرة ثانية فنقول إننا نقف إزاء

حقل لفظي (الغش) وليس إزاء حقل نسقي خاص بإعطاء بيان عن كلية الألفاظ.

وسنبين، في غيبة هذا النسق— وإن افترضنا أنه ممكن— وذلك بالاعتماد على مثل جديد، أن المنهج مسلح بقدرة تجديدية وتعميمية كبيرة.

لقد انطلقنا في المثل السابق من مفهوم («الغش») وبينا أن الكلمات التي تعبر عنه تكون نسقاً معنوياً. ونستطيع كذلك أن نتبنى الطريقة المعاكسة، أي أن نجمع في طاقم اشتقاقي، كل الكلمات التي تنتسب إلى أصل واحد مهما كانت معانيها الحالية.

هذا ما فعلناه مع الكلمات التي استقت معانيها من مفهوم «ضربة»، ونجد بينها أفعالاً، وأدوات، وأشياء، كما نجد كائنات مشاركة في الأمر. وإنها لكلمات كثيرة، وتعد بالآلاف بلا ريب. وتشكل مجموعة بعيدة التنويع لا تمثل مصطلحاتها أي علاقة دلالية مباشرة.

وإذا تساءلنا عن العلاقة بين كلمات مختلفة مثل: مفتون، مُعذِّب، أناقة، لسع، لطخ، غش، قسيمة، ختم، طبال إلى آخره، فإننا لن نحظى بطائل.

ويظهر التحليل مع ذلك بأن هذه الكلمات تعود كلها إلى

أصل كان معناه الأولي «أعطى ضربة» مروراً بضربات خاصة مثل: (ضربة سيف، ضربة قاطعة، ضربة مباشرة، ضربةمكررة، إلى آخره)، وكذلك ضربات الأدوات، ونتائج هذه الضربات. وإن اللوحة التي سنقدمها فيما بعد تكشف عن بنية هذا النسق، وسنرى أن هذه البنية بسيطة إلى أبعد حد.

وهكذا ستظهر كلمة (Toquer) «موضوعاً لضربة على مؤخرة الرأس»، (Tampon) «الأداة أو الموضوع لضربة مباشرة»، و(Taquiner) تعني «صوب ضربات صغيرة» و(Chiquer, Croquer) «نفذ (رسماً) ضربة واحدة»، إلى آخره. وإذا كانت الكلمات (مفتون، أناقة، ختم) متباعدة ومتفرقة على المحور الأفقي في أقصى الجانب الأعلى و «السطحي» لشجرة التصنيف، فإنها في الواقع متقاربة جداً على المحور العامودي. ويدل على هذا تعبيرات مثل: ضربة رائعة، ضربة خمر، ضربة خنجر، إلى آخره.

إن التعبير «ضربة رائعة» يعني «فعل ساطع» وذلك لأن كلمة «ضربة» هي الشكل الاستعاري لكل الأنشطة المتعدية، ولكل «فعل»، وثانياً لكل «عمل».

وإذا نظرنا إلى «ضربة خنجر» فسنجد أنها ضربة قد وقعت (استعارياً) على الرأس.

أما بالنسبة للتعبير «قطعة قماش» فإنها قطعة فصلتها ضربة قاطعة عن كل شيء. ولذا نجد بشكل قياسي «ضربة خمر»، إلى آخره[1].

ولقد تبرعم، قياساً على نفس النموذج، عدد من الأفعال المعبرة عن الفكرة «أعطاه ضربة»، مثل: (Toquer ــ افتتن)، (Taquer ــ دق)، (Piquer ــ وخــز)، (Chiquer ــ مضغ «تبغــاً»)، (Taper ــ صفع)، (Toper ــ تصافح).

لقد صار الخلط بين الزمانية والآنية من الأمور المستبعدة. ولم يعد من الممكن أن نعرف الكلمات بموجب اشتقاقها. ولن نشكك باستقلال المحورين اللذين اتفق الناس عليهما. ولكن ما هو صحيح «على سطح الخطاب ــ المستوى الوحيد الذي وضع فيه حتى الآن التحليل اللفظي ــ لا يعود كذلك في البنية التحتيــة». وعلى هذا المستوى ــ الذي يمكننا الاشتقاق منه ــ نلاحظ أن التعارض قد توقف عن فرض نفسه، وأن الزمانية والآنية تلتقيان، وأن البنى تنتظم في عدد قليل، بسيط وربما عالمي، ويولد مجموع الألفاظ انطلاقاً من عدد قليل من قواعد التفريع.

---

(1) لقد قمنا هنا بترجمة حرفية ولم نقم بترجمة المعنى.

إن إعادة بناء هذه البنى الاشتقاقية (أو البدائية، أو العميقة)، وتحديد قواعد التحويل التي تتحقق الكلمات بها على سطح الاستعمال، كل هذه أمور يجب أن توضح قضية المعنى بصورة نهائية.

إن المقارنة التوزيعية، والتي بقيت على سطح الخطاب، قد انتهت إلى اللامنطقية البنائية للألفاظ، بينما بحثت المقاربة المفهومية، في البنية العميقة، عن صدى منعكس للمنطق العام. ومال الاشتقاق البنيوي إلى تأكيد وجود منطق للغة ولكن هذا المنطق يخضع إلى قواعد خاصة ومختلفة عن قواعد المنطق التي لا نستطيع على كل حال أن نطبقها على علم دلالة يريد أن يكتسب لنفسه صفة لسانية.

4. التحليل الإحصائي

تحتوي الطبعة الأصلية لهذا الكتاب بعض السطور المتعلقة بالسمات الإحصائية للألفاظ. ولقد تقدم البحث في هذا الميدان بعد ذلك.

أريد هنا أن أتعامل مع أعمالي الخاصة، لا لأني أريد أن أعطيها ميزة خاصة، ولكن لأنها الوحيدة فيما أعلم التي حاولت أن تعطي تعريفاً كمياً للمعنى. وإن فائدة هذا التعريف توجد في المفهوم

«المفهومي» حيث يلتقي مع جزء من مصادرات «علم الدلالة البنيوي» ويؤكدها.

ولكننا نود أن نعطي بادىء ذي بدء بعض الملاحظات:

الملاحظات الأولى، وإن أصبحت قديمة، فإن الفضل فيها يعود إلى اللساني الأمريكي G.K. Zipf الذي أثبت أن تكرار الكلمات في نص من النصوص، أو في مجموعة من النصوص يتناظر مع توزيع ثابت.

فالكلمات المنضدة بموجب تدرج تكراري تنازلي تتوزع حسب خط مقوس تماماً كما يتساوى المنتوج المنضد (م) حسب التكرار (ت) مع ثابتة، بحيث يمكننا أن نقول إن: م ت ت ثابتة.

وتوجد من جهة أخرى علاقة حميمة بين عدد الكلمات لتكرار ما، وبين التكرار. أما الفئات التي تكون فيها نسبة التكرار منخفضة فإنها تحتوي على عدد أكبر من الكلمات. ففي نص يحتوي على /600/ كلمة مستعملة مرة واحدة، نجد /200/ كلمة قد استعملت مرتين كما نجد /100/ كلمة قد استعملت ثلاث مرات، إلى آخره. إن هذه النسب نسب ثابتة وعالمية.

ومنذ هذا حددت هذه المؤشرات، كما حققت عالمية هذه

العلاقات، وقد صار معترفاً بها من الآن فصاعداً كميزة من ميزات الخطاب.

وسنلاحظ أن المعادلتين ليستا غير أشكال مختلفة لعلاقة واحدة، وإننا نستطيع أن نتخلى عن الأولى منهما. كما سنلاحظ أيضاً أن هذه العلاقة ليست خاصة من خواص اللغة فقط، ولكنها توجد في عدد من الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية: توزيع طبقات العائدات والتجارات بما يتناسب ونقاط البيع، توزيع المدن بما يتناسب وعدد السكان، توزيع كوى الهاتف بما يتناسب مع عدد الطلبات، إلى آخره.

لقد درست هذه الوقائع كما درسها غيري. أما دراستي لها فكانت في كتاب اسمه: «السمات الإحصائية للمفردات (باريس 1954)». غير أني قد أضفت فيما بعد بعض الملاحظات.

أما (زيبف) فقد ذهب إلى أن تكرار الكلمة مرتبط بتعقيداتها الصوتية: كلما كانت الكلمة طويلة كانت أكثر تكراراً. ولقد قمت، أنا نفسي، بتدقيق لهذه الملاحظة فأظهرت أن عدد صوائت (فونيمات) الكلمة يتناسب مع مضمونها الإخباري.

وما أن يتم هذا التوزيع حتى يسهل إظهار علاقته المباشرة مع

معادلتي (زيبف)، ثم يمضي كل شيء كما لو أن تكرار الكلمات كان محدداً بعدد الصوائت التي تتألف منها.

ومع ذلك، فإن هذه الفرضية التي صغتها في تلك الفترة، تبدو غير كافية. فنحن نتصور حدسياً وبدهياً، أن المعنى هو الذي يحدد اختيار الكلمة وعدد استعمالاتها وليس شكلها الصوتي.

سبق (لزيبف) أن بين من جهة أخرى أن عدد المعاني الذي تستطيع الكلمة أن تأخذه يتناسب مع الجذر التربيعي لتكرارها.

ولقد دققت بنفسي في هذه العلاقة، وذلك انطلاقاً من تحليل قاموسي، وأظهرت أن عدد الكلمات، التي تحتوي على 1، 2، 3 من المعاني المختلفة، يخضع لتوزيع ثابت ومكون من الشكل نفسه لمعادلة (زيبف). كما أظهرت أيضاً أن هذا القانون يحدد توزيع المشتقات الصيغية، أي عدد الجذور التي تتمثل في 1، 2، 3، والتي هي كلمات أوجدتها الزيادات (Suffixation) واللواحق (Préfixation)، والتركيب.

أخيراً، إن هذا التوزيع المشترك بين الإشتقاقات الدلالية وبين الاشتقاقات الصيغية هو نفس التوزيع الذي أقامه Willis بين «الجنس والنوع» والذي يحدد التصنيفات الطبيعية داخل عدد الأجناس

(نبات ، حشرات) الممثلة في 1 ، 2 ، 3 ، إلى آخره من الأنواع .

نرى إذن أن مختلف معاني الكلمة ستكون كأنواع الجنس التي تكونها هذه الكلمة . وكذلك الحال بالنسبة لمختلف الاشتقاقات الصيغية مثل أنواع الجنس التي يكونها الجذر .

وهاهي ملاحظاتي التي أستخرجها من كتابي « البنى الإشتقاقية للفظ الفرنسي » :

عدد الإشتقاقات	1	2	3	4
لكل كلمة	نموذج	اشتقاق معنوي	اشتقاق صيغي	أنواع/أجناس
1	600	678	600	573
2	1800	189	205	176
3	90	109	102	85
4	40	41	66	36
5	26	27	41	20
6	17	19	28	
7	12	15	14	
8	9	10	10	
9	7	3	9	
10+	6	6	6	
	14	17	34	

غير تام

تكشف مجموع هذه الوقائع ـ التي لا مجال لتحليلها هنا ـ عن وجود علاقة مباشرة بين عدد معاني الكلمة وتكرارها. كما يتبين لنا أن هذه العلاقة تحيل إلى توزيع ثابت وعالمي.

ولكن بما أن التكرار نفسه مرتبط بعدد أصوات الكلمة فإنه مما ينتج عن هذا هو وجود علاقة بين عدد المعاني للكلمة وعدد أصواتها. وهي علاقة سهلة في إنشائها، سهلة في ملاحظتها.

والفرضية التي تخامر البال أن التكرار إنّما يحدده الشكل المعنوي للمدلول وليس الشكل الصوتي للدال، ولكن هذين الشكلين متماثلان. وهذا يعني أن المدلول مشكل من مجموعة المعاني كما أن الدال مشكل من مجموعة من الأصوات، وهذا يدل على وجود نسق دلالي من الطبيعة الشكلية نفسها للنسق الصوتي.

لم يبق لنا الآن إلا أن نتصور قالباً رياضياً، أو نموذجاً يقدم حساباً عن مجموعة الملاحظات التي في حوزتنا. ومعلوم أن علم الأصوات يسمح بتصور نسق مكون من /23/ وحدة دلالية، ومركبة حسب عدد معين من القواعد.

ستكون هذه الوحدات الـ 23/ أولاً مزدوجة وتوضع في /16/ زوجاً من التعارضات، كما يحصل ذلك في المدلول نفسه حيث نجد أن

واحداً من الأعضاء المزدوجة يستطيع الظهور. ومثل هذه المزدوجات هو: حي/جامد، فاعل/قضية، إلى آخره.

ولنتصور الآن أننا نشكل «كلمات» انطلاقاً من التشكيلات الممكنة لهذه المتنافرات الـ /16/ مستخدمين في ذلك القاعدة التي تقول لا يمكن استخدام الوحدة الدلالية نفسها مرتين في كلمة بعينها. ثم لنركب الكلمات الناتجة بهذه الطريقة فيما بينها مستخدمين القاعدة التي تقول لا تستطيع الكلمات المركبة في مقطع واحد، أن تحتوي على المعنى نفسه بصورة مشتركة.

إننا سنحظى آنئذ بالمتوالية التالية التي تعطي عدد الكلمات المركبة من 1، 2، 3...، 16 معنى. كما سنحظى بعدد المركبات الممكنة بالنسبة لكل فئة مع الكلمات الأخرى للنسق.

متوالية التركيبات لنسق مكون من 16 عنصر:

عدد المعانم	عدد الإشارات	عدد المعاني
1	16	128
2	120	64
3	550	32
4	1850	16
5	4300	8
6	8000	4
7	11400	2
8	12000	1
9	11400	
10	8000	
11	4300	
12	1800	
13	550	
14	120	
15	16	
16	1	

إذا قبلنا بأن هذه التركيبات النحوية تحدد مختلف معاني الكلمة، فسنحظى آنئذ، فرضياً، بنموذج لعدد الكلمات التي لها 1، 2، 3، إلى آخره في المعاني. ويتناسب هذا النموذج مع التوزيع الملاحظ

انطلاقاً من منتخبات قاموسية. وسنلاحظ أن النسق المعنمي مغلق (16 وحدة معنمية)، وأن عدد المعاني مرتبط ليس بعدد معانم الكلمة، ولكن بعدد المعانم الغائبة للكلمة. وهكذا نرى أن كلمة مكونة من /5/ معانم تحتوي على /9/ معانم غائبة (16ـــ5=9). وإن هذا الرقم هو عدد العلاقات التركيبية والمعاني التي يمكن للكلمة أن تعقدها.

نفهم لماذا، إذن، يتناسب عدد المعاني عكسياً مع عدد المعانم، وبما أن هذا الأخير يتناسب عكسياً مع الإمكانية، فإنه ينتج عن ذلك أن عدد المعاني يتناسب مع التكرار.

هذا ما تتحقق منه المعطيات المباشرة والحدسية للملاحظة التي تقول لنا إن كلمة عامة جداً مثل (فعل، حيوان، الخ) تحتوي على مضمون معنوي ضعيف، ولكنها تمتلك عدداً كبيراً من المعاني والتكرار. والعكس صحيح بالنسبة لكلمة معينة مثل (خرط، كلب بكيني، الخ).

يفيد هذا التحليل في توضيح هذه الملاحظات وتأويلها.

فإذا كان التكرار محدداً بعدد المعانم المكونة للكلمة، فإننا نستطيع أن نحسب احتمالية كل معنم مرتبط شرطاً بالمتوالية. ويكون الرقم /0,144/ في النتيجة هو الذي يتناسب، لمرة ثانية أيضاً، بشكل رائع مع الواقع الملاحظ.

لدينا /16/ فئة صيغية من /1 ، 2 ، 3 ... إلى 16 معنم) وكل فئة تحتوي على عدد محدد من الكلمات (16 ، 120 ، 550 الخ) وهكـذا كاحتماليـة من الاحتمالات : 144ر2 ، 144ر3 ، 144ر4 ، إلى آخـره) . ونستطيع ، انطلاقاً من قاعدة Poisson ، أن نحسب ، بالنسبة لنص له طول محدد ، في كل فئة عدد الكلمات الخارجة : (0 ، 1 ، 2 ، 3 ، إلى آخره من المرات) .

أخيراً نجمع الكلمات الخارجة عدداً من المرات ، الكلمات التي خرجت مرة ، والكلمات التي خرجت مرتين ، إلى آخره . وتزودنا هذه الحسابات بنتائج مدهشة وقريبة من كل الملاحظات التي تمت حتى الآن . ونتأكد في الوقت نفسه من صحة مجموع التوزيعات التي وصفناها من قبل .

تبعث هذه الحسابات الضجر ، ولهذا فإن برنامجاً يعد بها الآن لكي تعطى للأوردیناتور .

نأمل من الآن فصاعداً أن يكوّن هذا البرنامج ، بالنسبة لنص من النصوص ، ليس فقط عدد الكلمات المستعملة مرة أو مرتين أو ثلاث مرات ، ولكن أن يكوّن أيضاً ، من كل فئة من الفئات ، عدد الكلمات التي تحتوي على صوت أو صوتين أو ثلاثة أصوات ، الخ ،

وكذلك عدد الكلمات التي تحتوي على معنى أو معنيين أو ثلاثة معاني، إلى آخره.

إننا لا نستطيع في الوقت الحالي أن نؤكد تطابق هذا النموذج مع الواقع: إنه يعطي حساباً عن الواقع، ولكننا نستطيع، دون ريب، أن نغير مختلف الثوابت (عدد المعانيم قواعد التركيب، التكرار) وأن نبني نماذج أخرى تلبي الشروط نفسها. وهذا هو المهم. فمثل هذه النماذج ستكون، على وجه الاحتمال، من نوع النموذج نفسه الذي قدمناه هنا.

إنه لمن المعقول إذن، أن نتصور أن العملية المفهومية تعمل انطلاقاً من عدد صغير من الوحدات المعنمية. وقد يكون هذا العدد في حدود /32/ أو /16/ وذلك بتغيير شروط المتوالية.

تقدم هذه المعانم على مستوى المدلولات نسقاً يتساوى مع نسق الأصوات على مستوى الدوال.

نستطيع أن نتصور أخيراً هذه المعانم نفسها مبنية انطلاقاً من مجموعة تركيبات ذات عدد صغير من الإشارات المزدوجة تتناسب مع السمات الملائمة لعلم الأصوات. وسيكون عدد العناصر المعنمية /5/ في الحالة التي يكون فيها النسق مكوناً من /32/معنماً. أما إذا كان النسق مكوناً من /16/ معنماً فلن يتجاوز عدد العناصر المعنمية الـ /4/.

نريد، أخيراً، أن نبدي بعض الملاحظات وذلك دون أن نذهب بعيداً في تحليل هذا النموذج ومستلزماته.

إنه يؤكد إطروحات علم الدلالة المفهومي، وذلك بوضع فكرة «خفية» موضع البداهة، مع أن أشكالها المفهومية من إنتاج عناصر متباعدة. ولكنها تؤكد في الوقت نفسه أنه يجب على هذا النسق المعنمي أن يكون بالغ الاختصار والتجريد، وأن لا يكون مقصوده جملة من المفاهيم المعقدة، وبالنتيجة سطحية كما هي الحال حين يؤخذ بأمور جانبية مثل: «كرسي دون ذراع» أو «ذكر شاب دون أنثى في لحظة النزو»، إلى آخره.

تتكون هذه المعانم من عدد صغير، ربما يبلغ الثلاثين. وإن تحليلنا لا يستبق الحكم على مضامينها. فقد يكون المقصود هو «تقسيمات» أرسطو، أو أي شيء آخر. وإنه لمن الصعوبة بمكان أن يقال إن هذا النمط عالمي، وذلك على مستوى «البنى التحتية»، أو إنه صحيح بالنسبة للغات والثقافات.

وقد طرح تعميم هذه التوزيعات مشكلاً آخر، وذلك لأنها، كما سبق أن قلنا، ليست خاصة باللغة. إنها خاصة أيضاً بالظواهر الاقتصادية، والاجتماعية، والطبيعية. ويبدو أنه إذا كان في مقدور مضامين كثيرة الإختلاف أن تأخذ الشكل نفسه، فهذا يعني أن هذه

الصيغة تتعلق بالآلية نفسها كما تتعلق بالوظيفة نفسها أيضاً . وإن كل شيء يوحي والحالة هذه ، أنه ربما يكون المقصود هو النمط الذهني الذي يحدد طبيعته علم النفس والإدراك .

إن الإشارات الأربع أو الخمس التي تصورنا تركيبها في /16/ أو في /32/ معنماً تستطيع أن تتناسب مع قنوات دماغية لها علاقة بأحاسيسنا . وإن شبكة التركيبات هذه هي التي تكون العقل وتفرض شكلها الوحيد والعالمي على كل الواقع الإدراكي مهما كان مضمونه . وهذا ما يفسر ، من بين أشياء أخرى ، تماثل نسق المدلول ونسق الدال .

هناك مشكلة أخرى يطرحها تعريف المعنى . فمن الواضح أن العلاقة هي المقصودة ، وليس مضمون الكلمة ، كما أن المقصود هو الخواص النحوية في حالة القوة ، والتي تحدد إمكانات التركيب مع الكلمات الأخرى للنسق .

ولكن هذا لا يعني ، بالرغم من كل شيء ، أن الكلمات لا تحتوي على مضمون ، وذلك كما يبشر به معظم البنيويين . فالمفاهيم تحتوي على مضمون له معنى باعتبار أنها نتيجة من نتائج تركيب المعانم . وإن هذه المعانم ، على وجه الدقة ، هي التي تعزز إمكانات علاقة الكلمة ، أي معانيها .

تكون المعانم والمعاني، إذن، كيانين مستقلين. وسنلاحظ أن النموذج الذي يكشف عن العلاقة بين المعاني والتكرار يؤكد أن عدد المعاني لا يحدده عدد المعانم الموجودة في الكلمة (على الأقل مباشرة)، ولكنه يحدد بعدد المعانم الغائبة عن الكلمة، وهذا ما يفسر أنه كلما كان المضمون الدلالي للكلمة معقداً قل عدد معانيها، وقل في الوقت نفسه تكرارها.

يمكننا أن نقول أخيراً كلمة في مضمون هذه المعانم. إن تعريفات القواميس تبعث بنا في الغالب نحو مصطلحات عامة دائماً، ويستمر هذا حتى نرى أنفسنا ندور في حلقة. ونضرب مثلاً على هذا: تعرف كلمة «ضربة» «بحركة يتم بها إصطدام جسد بآخر»، كما تعرف كلمة «حركة» بـ «تغير الوضع ضمن الحيز وذلك تبعاً لظرف الزمن». كما تعرف كلمة «خير» بـ «وسط مثالي، تميزه خوارج أقسامه، وفيها تتمركز مدركاتنا، وهي تحتوي، في النتيجة كل المساحات المنتهية» (Lalande).

وتلتقي على هذا المستوى مع مفاهيم مثل: زمن، فضاء، هوية، سلب، علاقة، جوهر، إلى آخره.

لا تستطيع هذه المفاهيم أن تتحدد، ذلك لأنها عبارة عن مسلمات. ومن المحتمل جداً أن يكون النسق الدلالي الذي تصورناه،

بدائهياً. فإذا كان ذلك كذلك، فإن المشكلة ستطرح لمعرفة ما إذا كان عالمياً، ولمعرفة ما إذا كان علم الدلالة واحداً أو على العكس من ذلك، أي إذا كان متعدداً كما هو المنطق غير الأرسطي، أو كما هو علم الهندسة غير الأقليدي.

ولكن إذا كانت أسس هذا النسق تستطيع أن تتنوع مع تنوع مصادفات الثقافة، فإنه يبدو أن شكلها يبقى مرهوناً بضرورة عقلية طبيعية.

الفهـــرس

تقديم (بقلم الدكتور مازن الوعر) 9
المقدمة 15
1 ــ علوم الدلالة الثلاثة 15
2 ــ الدلالة اللسانية 18

الفصـــل الأول

المعنـــى

قضيـــة الـدلالـة

1 ــ إشارات ومعان 27
2 ــ الاشارات والرموز 30
الاشارات 35

3 ـــ المدلول اللساني : معنى ومفهوم 36
4 ـــ المعنى والعلاقة 42
5 ـــ القسر والعلة 44
6 ـــ الخاتمة 51

الفصل الثاني

المعنى
الوظيفة الدلالية

1 ـــ المعنى وأثره 56
2 ـــ الخلق الدلالي 64
3 ـــ التطور الدلالي 68

الفصل الثالث

تغيرات المعنى
وأشكالها

1 ـــ البلاغة : إحصاء وصفي 75
2 ـــ الشكل المنطقي لتغيرات المعنى 77
3 ـــ الشكل الدلالي لتغيرات المعنى 78

الفصل الرابع

تغيرات المعنى
أسبابها

1 ــ التسمية 100

1 ــ التسمية الإدراكية 100
2 ــ التسمية التعبيرية 102
3 ــ القوة الانفعالية الباطنية 104
4 ــ تورية ومحظورات 105
5 ــ اقتصاد الكلام 108
6 ــ الوضوح والإيصال ــ الصراعات الجناسية 110

2 ــ تطور المعنى 113

1 ــ تطور المرجع 113
2 ــ إيهام الحافز الإشتقاقي 115
3 ــ التنضيد الإجتماعي 116
4 ــ العدوى 118
5 ــ الاشتقاق الشعبي 120
6 ــ تصنيف الأسباب 121

الفصل الخامس

من زاوية البنية

1 ــ اللغة والبنية 129

2 ــ علة داخلية وعلة خارجية.. 132
3 ــ حقول Trier اللسانية.. 134
4 ــ حقول Trier.. 138
5 ــ علم الألفاظ لـ Matorè.. 139
1 ــ العقل والأنوار.. 142
2 ــ الشعور.. 143
3 ــ الأحاسيس.. 143
4 ــ الاجتماعية.. 144
5 ــ الفضيلة.. 144
6 ــ عوالم التفكير لـ Sperber.. 147
7 ــ اللسانيات على مفترق الطرق لـ Belin-Milleron.. 149
8 ــ الحقول الدلالية.. 151

الفصل السادس

علم الدلالة البنيوي

1 ــ التحليل التوزيعي.. 157
2 ــ التحليل المفهومي.. 165
آ ــ المدونات.. 169
ب ــ فلسفة اللغة.. 173
جـ ــ علم الدلالة العام.. 175
3 ــ التحليل الاشتقاقي.. 179
4 ــ التحليل الاحصائي.. 188

علـــم الدلالـــة = La Sémantique / تأليـــف بيير جيرو ؛ ترجمة منــــذر عياشي . ـ ط. ١ . ـ دمشق : دار طلاس، ١٩٨٨ . ـ 208 ص. ؛ ١٨ سم .

١ ـ ٤٠٢ غ ي ر ع ٢ ـ العنوان ٣ ـ غيرو
٤ ـ عياشي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـ ١٩٨٨/٦/٥٨٩

رقم الاصدار ٣٥١